
فَتاة الرَبيع
رويدة الدعمي

(فتاة الربـــيــع)

رويدة الدعمي

١

استيقظت ريحانة من حلم غريب!

رأت نفسها وهي في مظاهرة ضخمة قرب ضريح الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، كانت تهتف حبًا للوطن وهي تسير مع شاب وسيم جنبًا إلى جنب وهو يمسك بيدها بقوة ويرفع يده الأخرى ويصرخ :

الشباب لن يكل.. همه أن يستقل.. أو يبيد.. أو يبيد!

نستقي من الردى.. ولن نكون للعِدا كالعبيد.. كالعبيد!

لم تلتفت إلى وجه ذلك الشاب الذي يرافقها لتميز من هو؟! فلقد كانت هي الأخرى متحمسة لقراءة ذلك المقطع الرائع من قصيدة موطني.. فصارت تهتف معه بكل ما أوتيت من قوة!

عندما استيقظت كانت تشعر بشعور رائع، فهل هذه الرؤيا دليل على إقتراب وقت الثورة على الظلم؟! هل سيأتي ذلك اليوم الذي يقف فيه الشباب في بلدها يدًا بيد ليقولوا للظلم والفساد : كفى؟!

ولكن! من هو ذلك الشاب الذي كان ممسكًا بيدها؟! إنها ما تزال تستشعر حرارة يده وكأن الحلم حقيقة قريبة الوقوع! لقد كان صوته قريبًا من قلبها وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد..

قامت لتغسل وجهها وهي تردد : خير.. اللهم اجعله خيرا.

****

ريحانة.. تلك الفتاة التي فقدت والدها وهي ما زالت جنين في بطن أمها!

عاشت في كنف والدتها (مروة) ترتوي من نبع حنانها وفيض محبتها..

كانت مروة شفافة القلب جياشة المشاعر، دمعتها في طرف اجفانها وكذا كانت ريحانة!

صحيح أنها لا تشبه والدتها كثيرًا في الشكل الظاهري فهي تحمل ملامح أهل والدها أكثر، لكنها في الوقت نفسه تتمتع بأنوثة واضحة نتيجة ما تحمله من عواطف ومشاعر رقيقة جدًا ورثتها من أمها الحنون!

تقدم الكثير من الشباب لخطبة مروة بعد وفاة زوجها لأنها كانت في بداية شبابها لكن خوفها الشديد على مصير ابنتها إن هي ارتطبت برجل آخر كان يمنعها من الموافقة، فلقد كانت تخشى أن يأتي أهل زوجها الراحل ليأخذوا إبنتها منها!!

تحملت مروة الكثير الكثير لأجل سعادة ابنتها وتأمين مستقبلها في الحياة.

****

مضت الأعوام وريحانة تكبر أمام عيون والدتها ومعارفها وصارت تبدو أجمل يومًا بعد يوم، بشرتها البيضاء الناصعة، عيناها الواسعتان، أنفها الدقيق والجميل، وجنتاها المتوردتان دائمًا من الخجل والحياء.. كل هذه الصفات والملامح الرائعة تجعلها في نظر الجميع وكأنها حورية من الحور العين أو ملك سماوي نزل من الجنان إلى الأرض!

كان لـ (صفا) وهي الصديقة المقربة جدًا لمروة ولد وبنت هما (مصطفى وتقوى) تقوى بعمر ريحانة بينما مصطفى يكبرهما بعامٍ واحد، وقد اعتادت صفا على أخذهما لبيت صديقتها مروة منذ نعومة أظفارهما..

كانت تبقى مع ولديها لدى مروة ساعات وساعات إلى وقت متأخر من النهار وعندما ينهي زوجها عمله يأتي لأخذهم.. كان هذا يحصل في عطلة نهاية كل أسبوع تقريبًا.

كانت العلاقة بين ريحانة وتقوى تكبر يومًا بعد يوم، بينما مصطفى كان يبتعد عن ريحانة شعورًا منه بالحياء تجاهها وخاصة بعد أن أفهمته والدته بأن ريحانة لم تعد طفلة كالسابق وهو أيضا قد بلغ مبلغ الرجال ولا يجوز له التقرب إليها وإطالة الحديث معها!

صارت لقاءاته بريحانة تقل يومًا بعد يوم وكلما حاول أن يقترب منها أو يتحدث إليها يتذكر وصايا والدته فيبتعد رغمًا عنه!

مضت الأيام وصار مصطفى يتعرف أكثر إلى أحكام الدين ويحب أن يلتزم بها وهذا ما جعله يترك التفكير بريحانة إلا بعض المشاهد الطفولية التي كانت تمر في باله وتعبر من خلال ذاكرته فيبتسم لها ثم يحاول أن ينساها أو يتناساها!

٢

ها هي ريحانة تحتفل بعيد ميلادها السابع عشر مع كل من أمها وصفا وتقوى وصديقتها المقربة يقين، لقد قررت أن تقدم هذا العام لكلية الصيدلة فهي تحب هذه الكلية كثيرا وخاصة أنها نفس كلية مصطفى! إنها تتمنى أن يكون قبولها حيث يدرس مصطفى لعلها تكون قريبة منه أكثر وتعود علاقتها معه كما كانت في الصغر إذ كان أقرب شخص إليها وما يزال! هي الآن تتمنى وبأي طريقة أن تجعله يفهم مرادها بالارتباط به فهذه هي أمنية حياتها..

لم تكن ريحانة قد رأت مصطفى منذ زمن بعيد رغم أنه لم يفارق مخيلتها! وها هو اليوم قد جاء بنفسه ليأخذ أمه وأخته بعد أن انتهى حفل عيد الميلاد..

رنَّ جرس الباب فركضت لارتداء عباءتها واتجهت لفتحه وهي تتمنى لو كان الطارق مصطفى صديق الطفولة!

تفاجأت عندما رأت أمامها شاب في العشرين من عمره ما إن نظرت إليه حتى عادت بها الذكريات إلى ذلك الزمن البريء، انه هو!

لكنه اليوم يبدو رجلًا بمعنى الكلمة، طأطأ رأسه خجلًا فلقد ارتبك هو أيضًا من رؤية ريحانة بعد كل هذه السنوات، تلعثم قليلًا وهو يقول :

- السلام عليكم.. أرجو أن تنادي لي والدتي وأختي!

لم تتكلم ريحانة بشيء، اتجهت مرتبكة نحو الداخل وهمست في أذن تقوى قائلة :

- أنه مصطفى.. جاء لاصطحابكم!

نظرت تقوى إليها وهي تخفي ابتسامتها قائلة :

- ولكن ما الذي يجعلكِ مرتبكة بهذا الشكل!

أجابت ريحانة بتوتر :

- أنا.. لا، لا أبدًا!

وفي المنزل لم يطق مصطفى صبرًا فلقد سأل أخته إن كانت ريحانة مرتبطة بشخصٍ ما، فقالت له بسعادة غامرة :

- أبدا.. ليست مرتبطة بأي شخص، لقد كانت فرحتها اليوم لا توصف وهي تراك بعد كل تلك السنوات!

اتسعت عينا مصطفى وهو يسألها بدهشة :

- ولكن كيف عرفتِ ذلك؟

- كان هذا واضحًا على مُحياها.. صدقني!

أردفت وهي تضحك بقوة :

- نحن البنات تفهم إحدانا الأخرى من النظرات فقط!!

شعر مصطفى بسعادة غامرة ثم صار يسألها عن أمور كثيرة تخص ريحانة، فعرف أنها تريد دخول كلية الصيدلة وهي الكلية التي يدرس فيها حاليا!

قالت له أخته محاولة إنهاء الحديث :

- انتظر هذه السنة فقط، وستجدها في العام القادم معك في نفس الكلية!

شعر مصطفى بأن عامًا كاملًا لهوَ وقت طويل ويجب أن يختصر المسافات! قرر أن يتكلم مع والدته حول إمكانية خطبته لريحانة خلال هذا العام! لكنه وقبل أن يخطو هذه الخطوة تمنى لو يعرف رأي ريحانة به شخصيًا، عاد ليناديي على أخته وطلب منها اسم الصفحة الشخصية لريحانة، وما كان من أخته إلا أن لبت الطلب برحابة صدر فهي تعرف أن أخاها أهلًا للثقة وهو إن كان سيتحدث مع ريحانة عبر الإنترنت فإنما تكون نيته الزواج بها فعلًا وليس التلاعب بمشاعرها أو عقد علاقة زائفة معها على الاطلاق!

فتح هاتفه ودخل على موقع الفيس بوك ليبحث عن صفحتها الشخصية وما أن عثر عليها حتى أرسل إليها رسالة يسألها فيها عن رأيها الصريح به وهل ستوافق إن تقدم لخطبتها؟!

وصلت الرسالة لريحانة وشعرت وهي تقرأ حروفه بأنها أسعد إنسانة في هذا الوجود، كتبت دون تردد :

وهل تسألني إن كنت سأوافق أم لا.. وأنا التي كنت أحسب الساعات والثواني لألتقي بك من جديد؟! تفاجأ مصطفى من جرأتها وشعر بمزيج من الفرح والحزن! شعر بالفرح لأن أمنيته بالارتباط بهذه الفتاة على وشك أن تتحقق، وأما شعوره بالحزن فلأنه كان يتمنى لو كانت ريحانة أكثر حياءًا في التحدث معه! فها هي ومن أول رسالة تعلن له عن حبها!

استمرت ريحانة بالكتابة وهي تخرج ما في مكنونها من مشاعر جياشة تجاه هذا الشاب وكيف كانت لوعتها خلال الأعوام الماضية واشتياقها له بعد أن منعهما الأهل من اللقاء!

كان يقرأ حروفها مع تسارع نبض قلبه وتمنى لو أنه لم يحادثها من الأساس، إنها صادقة في مشاعرها! وفرحتها به وارتباكها الواضح ساعة لقاءهما السابق عند باب منزلها كان أكبر دليل على صدقها في كل حرف تكتبه الآن، لكن ما أسرع ما باحت له بكل شيء!!!

تذكر أنه قد خزن في مفكرة هاتفه رسالة شاب يخاف الله إلى فتاة أحبها ومنعه خوفه من الله من تكوين علاقة معها رغم أنها تحبه أيضا!

قرر أن يرسل إليها تلك الرسالة فهي تحكي عما يدور في قلبه في هذه اللحظات، نعم هذه الرسالة يجب أن يرسلها إليها الآن وقد نسخها سابقًا من إحدى المواقع الإلكترونية..

وفعلاً وما هي إلا لحظات حتى كانت تلك الرسالة في هاتف ريحانة وهي تقرأها بدهشة! حيث كتب لها :

إن كنتِ أحببتِني فلا تصارحيني..

فكلماتُ العشق ونظراته لا تستهويني!

إن كنتِ أحببتني إنتظري

وسأطرق بابك متعجلاً..!

لا تخبريني عمّا يدور في داخلك

فهذا سيبعدني ولن يرضيني

لا تعطيني إمتيازات لا أستحقها..!

ابعديني عنكِ وسأقترب..

وإن اقتربتي فستبعديني!

لا تحبيني.. فأنا أريدك دون حب!

سأُعلمكِ أنا الحب

عندما يرضى الله جمعنا في ظل رضاه

لا تطلعيني على مشاعرك!!

لا تعطيني وقتاً من وقتك!

فستبخس قيمتك!

فتدفعيني لأخسرك..

لا ترضي بي شابًا ينظر إليكِ أو إلى غيرك!

فلو احببتك حقا..

لغضضتُ بصري ارضاءًا لخالقي أولاً واخلاصًا لك!

لا ترضي بي شابًا يرضى لمن أحبها أن تُذنب!

أنا رجل..

لا يرضى لكِ أن تفعلي شيئا تخجلين منه لاحقا!

لا أريد لضميركِ ولا لقلبكِ تأنيبا..

أريدكِ تلك التي إذا نظرت الى ابيها استحقت ثقته!

اجعلي لي حدودًا لا اتخطاها!

أريدكِ بريئة طاهرة نقية

أريدكِ غالية منيعة بعيدة المنال!

وحينها.. لأنّي أحبك بصدق أكثر من الصدق نفسه!

سأقهر كل الصعاب للوصول إليكِ..

لا تكوني سهلة فلا أشعر بقيمتك!

عنفيني إن اخطأت وستجدينني سهلا!

لا تحبينني الآن..

كي لا أكرهك!

فقلبي يريدك ولا يريد خسارتك..

واعلمي أن هذه الكلمات أنطقها بدم قلبي

لا أريدكِ نزوة سرعان ما تزول..

أخاف الله فيكِ

أشتاقكِ نعم..

لكن أخاف أن يؤذيكِ قربي!

فالرجل الذكي إذا أحب فتاة جعلها لله أقرب منه!

أريدكِ زوجة وحبيبة وأمًا لاطفالي

ونمضي عمرًا بأكمله

لا تهمني البداية مهما كانت محرقة!

أريد نهاية مشرقة للابد!

الحب :

هو أن أحميكِ وأغار عليكِ من نفسي..

إن صارحتِني بمشاعركِ ما عدتِ بريئة!

وما جنينا إلا غضب الله!

واعلمي : إن أمر اجتماعنا أو افتراقنا بيد الله وحده.

****

قالت له والدته وقد فاجأها طلبه بخطبة ريحانة :

- ولكن يا ولدي.. إنها ما زالت في عامها الأخير من الثانوية، في هذه المرحلة يجب أن يكون الطالب خالي الذهن ولا يشغله أمر آخر غير دراسته! فكيف تريدنا أن نخطبها لك وهي في هذه المرحلة الحرجة؟!

- لكن يا ماما هي مجرد خطوبة، نلبس الخواتم فقط وبعد إنتهاء الامتحانات سيكون عقد القِران.. صدقيني!

ضحكت والدته وهي تقول :

- أراك قد خططت لكل شيء دون استشارة أي أحد!

طأطأ مصطفى رأسه خجلًا وهو يقول :

- منذ فترة وأنا أتمنى أن أسألكم عن ريحانة لكنني أخجل كثيرا، آخر مرة رأيتها فيها كانت بعمر الرابعة عشر، لقد جذبني شدة التزامها بحجابها وحياءها وأدبها.. ويوم أمس

عندما رأيتها مرة أخرى بعد كل هذه السنوات شدني إليها ذلك الشعور القديم، أشعر بأنها ستكون من نصيبي عاجلًا أم آجلًا.. ثم من أين ستحصلي على كنة ملتزمة ومتدينة في هذا الزمن الذي يتصف بالانفتاح والابتعاد عن الدين يا ماما؟!

هزت الأم رأسها وهي توافق كلام ولدها وتقول :

- فعلًا يا ولدي، كلامك عين العقل، سأفاتح والدك بالموضوع ولا أظنه سيعارض لأنه هو أيضًا يتمنى أن تكون ريحانة من نصيبك.

سألها مصطفى بدهشة :

- ماذا؟ هو أيضًا؟!

- نعم يا حبيبي، لكننا كنا ننتظر تخرجها من الثانوية العامة.

- حسنٌ يا ماما، مادام الجميع موافق على اختياري لريحانة إذن لنتوكل على الله ولنخطبها قبل أن يأتي شخص آخر لخطبتها.. ارجوكِ.

- حسنٌ يا ولدي، سيكون لك ذلك بإذن الله تعالى.

تقدم مصطفى رسميًا لخطبة ريحانة وكانت فرحة مروة لا توصف فلقد كان حلمها الوحيد في هذه الحياة أن ترى ابنتها تنعم بالراحة والهناء مع شاب مهذب وخلوق ومثقف كمصطفى، أما ريحانة فلقد أخبرتهم بأنها لن تعطي الموافقة النهائية إلا بعد أن تكمل مرحلة الثانوية! وكانت هذه خطة منها لرد اعتبارها على رسالة مصطفى إليها عندما طلب منها أن لا تصارحه أكثر عن حبها له!

وفي أول يوم من العطلة الصيفية جاءت صفا مرة أخرى لخطبة ريحانة لولدها الوحيد بعد أن أنهت الفتاة امتحاناتها بكل تفوق، أبدت مروة موافقتها النهائية وهي تقول :

- لم تبق إلا موافقة ريحانة، وبإمكانكِ الآن مناداتها للتأكد من موافقتها بنفسك.

نادت صفا على ريحانة وما كان من الأخيرة إلا أن أتت وهي تشعر بالخجل فلقد علمت من خلال تقوى عن سبب زيارة صفا لهم!

جلست ريحانة وهي خافضة الرأس تشعر بأن أصوات دقات قلبها صارت مسموعة للباقين وستفضحها عاجلًا أم آجلًا!!

خرجت صفا من بيت صديقتها وقد أخذت الموافقة النهائية في خطبة ريحانة لولدها.

٣

تم عقد القِران في أجواء من الفرح والسرور، وها هي اليوم ريحانة تخرج مع خطيبها وزوجها شرعًا لأول مرة، وما أن وضع يده في يدها حتى شعرت بشعور غريب جدًا، ليس الشعور بالخجل والذي يصاحب كل فتاة في أول يوم تخرج فيه لوحدها مع خطيبها! لا.. انه شعور آخر.. شعور يأخذها لذلك الحلم الغريب الذي رأته منذ مدة، إنه الشخص الذي كان يمسك بيدها ويردد بكل حماس كلمات أنشودة موطني !

قطع سلسلة أفكارها صوت مصطفى وهو يقول : سنتجه إلى المقام الشريف لصاحب العصر والزمان.. ما رأيكِ؟

كانت أمنية مصطفى أن يكون المقام الشريف في مدينتهم كربلاء المقدسة هو الوجهة الأولى لهما معًا، لكنه تفاجأ بريحانة وهي تقول :

- أتمنى أن تأخذني إلى معرض الكتاب ، أشعر بالفخر لو كان هو وجهتنا الأولى.

قال مصطفى بابتسامة باهتة :

- أقول لكِ المقام الشريف.. فتقولين معرض الكتاب؟!

دحجته ريحانة بنظرة حادة وهي تقول :

- وما به معرض الكتاب؟ لا تقل لي بأنك تكره الكتب والقراءة؟!

ابتسم مصطفى وهو يقول :

- لا.. بالعكس! أنا من محبي القراءة وأنتِ تعرفين ذلك فنحن عائلة عندنا القراءة من أولى أولوياتنا!

- إذن ما المشكلة يا عزيزي؟ دعنا نذهب لمعرض الكتاب أرجوك! أريد أن أنشر على مواقع التواصل الخاصة بي خبر خطوبتي من شاب مثقف جدًا يحب القراءة كثيرًا والدليل أنه أخذني في أول نزهتنا معًا إلى معرض الكتاب.

قال مصطفى بامتعاض بدى واضحًا على ملامحه :

- إن كنتِ ترين الثقافة هي في حب القراءة واقتناء الكتب فقط فأنتِ على خطأ يا ريحانة!

لم تدعه ريحانة يكمل كلامه فلقد سحبته من يده وهي تسرع أمامه :

- دعنا من ذلك الآن، سأستمع إلى نصائحك في وقتٍ لاحق، إن المعرض يُغلق قبل الغروب بساعة، هيا.. هيا أسرع بنا أرجوك!

سار مصطفى مع خطيبته منصاعًا لرأيها وهو يتكلم مع نفسه :

- كنت أتوقع بأنها ستفرح كثيرًا عند إقتراحي عليها في الذهاب إلى المقام الشريف!

وفي المعرض كانت ريحانة تتنقل بين دور النشر والمؤسسات المشاركة بكل فرح وسعادة حتى أنها كادت تنسى وجود مصطفى!!

بينما كان يراقبها بدهشة وفي كل مرة يقترب منها ليخبرها بأن تمسك عباءتها جيدًا وخاصة انها كانت ترتدي ملابس ضيقة جدًا تحت العباءة!

قالت له وهي غير ملتفتة لطلبه :

- انظر إلى هذه الكتب التي اشتريتها، انها عشقي الذي أبحث عنه منذ زمن!

ثم صارت تريه الكتب واحدًا تلو الآخر فرآها عبارة عن كتب غربية أكثرها لمؤلفين من الروس والألمان، قال لها بدهشة :

- ولكن خلتكِ ستبحثين عن كتب..

ولم تدعه يكمل حتى ضحكت وهي تقول :

- كتب رومانسية صحيح؟! هل تجدني تافهة إلى هذا الحد! أصلًا أنا أكره قصص العشق والغرام والأحاديث التافهة!!

- حسنٌ.. وأي نوع تحبين من الكتب إذن؟

- الكتب الغربية التي تتحدث عن العلم والتطور التكنلوجي، الكتب التي تعطينا معلومات كثيفة عندما ننتهي من قراءتها.

تساءل مصطفى : معلومات؟!

- نعم عن العلوم، عن الاختراعات والاكتشافات.

هز رأسه مصطفى وهو يقول : جميل!

ثم أردف وهو يبتسم ببرود :

- هل أستطيع الآن أن أبحث عن الكتب التي تستهويني؟!

قالت ريحانة مستهجنة كلامه :

- ولكن لماذا لم تبحث عنها منذ البداية؟ أراك انشغلت بي وتركت نفسك!

- لكنكِ نفسي أيضًا.. بل أغلى من ذلك! فكيف أتركك وسط هؤلاء الشباب وأذهب لأبحث عن كتبي؟!

فرحت ريحانة بكلام مصطفى وشعرت بالتقصير تجاهه فهذه نزهتهما الأولى لكنها لا تعيره ذلك الاهتمام رغم سعادتها بالارتباط به!

أمسكت بيده وهما يسيران وسط المعرض، فاتجه نحو مؤسسة إسلامية واقتنى كتاب (المصلح الغيبي) وكتاب (يوم الخلاص في ظل القائم) وهو يقول :

- قرأتهما بشكل الكتروني، وحان الوقت لقراءتهما ورقيًا.

أخذت ريحانة الكتابين من يده، قلبت صفحاتهما بسرعة ثم أعادتهما إلى مصطفى وهي تقول :

- كنت في السابق أهوى قراءة الكتب الدينية، أما الآن فلا أحب غير قراءة الكتب العلمية!

قال وهو يمد يده نحو رواية (في قلبي أنثى عبرية) :

- هذه الرواية للدكتورة خولة حمدي، قرأتها إلكترونيًا أيضًا وسأستشريها لكِ الآن، أحببت اسلوبها جدًا.

أخرج النقود من محفظته واشترى الكتاب ليعطيه إياها، أخذته وقد جذبها العنوان كثيرًا.

ثم مد يده نحو سلسلة الشهيدة بنت الهدى رضوان الله عليها :

- وهذه القصص الرائعة تجمع بين العلم والدين.. ما رأيكِ أن اشتريها لكِ غاليتي؟!

قالت بابتسامة باهتة :

- في عمر الخامسة عشر قرأتها كلها!

- ماذا؟!

- نعم صدقني، موجودة في مكتبتنا ولقد نصحتني ماما بقراءتها ولأني أحب القراءة كثيرًا فلقد قرأتها جميعها.

- وما كان رأيك بها؟

- في البداية أبهرني أسلوب الكاتبة في الجمع بين العلم والدين، كنت أراها مثقفة جدًا!

- والآن؟

- الآن.. مثلما أخبرتك لاتستهويني سوى الكتب العلمية البحتة التي لا تتحدث إلا عن العلم!

- والدين؟

- امم.. حقيقية لا أحب أن أتناقش في هذه الكلمة!

- ولكن منذ متى؟ حسب علمي كنتِ فتاة لا تحب غير الدين!

- نعم صحيح.. هذا كان في السابق، أما الآن فأنا لا أحب النقاش فيه ليس لأني أكرهه بل لأن الناس تفهم الدين على غير حقيقته!

- وما هي حقيقته؟

- أوه أرجوك يا مصطفى دعنا من ذلك، لماذا تعكر علي صفو نزهتي معك!

قالت هذا وهي تخرج من المعرض ومصطفى يتبعها مصدومًا بكل ما يسمع ويرى، وفي الشارع قالت له وهي تشبك ذراعها حول ذراعه :

- أريد أن تكون لي حفلة عقد قِران خاصة.

- ولكن ألم نعمل حفلة عائلية يوم أمس؟

- لا.. بل أريدها خاصة بصديقاتي، فيوم أمس لم أستطع أن أرقص في ذلك المحفل، كان أشبه بجلسة دينية ولم يكن ينقصنا إلا أن نفتح جهاز التسجيل على القرآن!!

شعر مصطفى ببعض الانزعاج من كلامها، قال وهو يبعد ذراعها عنه :

- لنكن على طبيعتنا.. فلا أريد أن نجذب أنظار الشباب نحونا!

- أراك استأت من كلامي.. صحيح؟

- نعم لا أخفيك!

- لم أقصد الإساءة للقرآن.. صدقني!

- لقد كانت أمنيتي أن تسمعي صوت قراءتي للقرآن في ذلك الحفل، الحمد لله إني لم اقرأه لكنت محل سخريتك واستهزاءك!

- لكنه حفل خطوبة، لماذا ندخل الدين في هذه الأمور، إن الدين جميل وسهل ولا يحارب سعادة المرء؟!

ألم أخبرك بأن الدين لديكم ليس كما هو على حقيقته! إنه دين الحب، دين السعادة، دين السهولة في كل شيء بينما انتم تعقدونه وتجعلونه أسودًا، قاتمًا وصعبًا إلى أبعد الحدود!

قال مصطفى وقد شعر بأن الدنيا هي التي إسودت في عينيه :

- أظن أنني توهمت عندما اخترتك حسب تصوري القديم، كان المفروض أن نجلس ونتكلم معًا ليعرف أحدنا الآخر!

قالت وقد صدمتها كلماته :

- وأنا أيضًا! كان المفروض أن أفهم بأن المتدينين أمثالك لا همَّ لهم إلا فرض آرائهم على نسائهم دون أن يحاولوا معرفة طبيعة أفكارهن!

- ولكن كيف يعرفوا ذلك؟!

-من نقاشاتهم معهن طبعًا.

-ولكنكِ لا تدعين لي أي فرصة للنقاش!!

شعرت ريحانة بالضيق، قالت في محاولة لإنهاء الحديث :

- ما زلنا في يومنا الأول وتريدنا أن نتناقش في الدين والأفكار والمبادئ!

أشار مصطفى إلى سيارته وهو يقول :

- هيا.. دعيني أعود بكِ إلى منزلك.

٤

طوال الطريق لم ينبس أي منهما بكلمةٍ واحدة، كانت ريحانة تبكي من غير توقف فلقد صدمها موقف خطيبها!

أما مصطفى فلقد كانت سرعته في السياقة توحي لها مدى تأثره ومدى صدمته هو أيضًا!

نزلت من السيارة وصفقت الباب خلفها بقوة، نست أن تأخذ كتبها فصاح خلفها :

- انتظري يا آنسة.. لقد نسيتِ العلم والثقافة!

مدَّ يده من نافذة السيارة وناولها الكتب بينما ابقى كتاب (في قلبي أنثى عبرية) في مكانه، ألقت نظرة أخيرة إلى عينيه فقرأت فيهما الكثير من الاستياء.

ابتعدت عن السيارة وهي تردد بغضب :

- لتذهب أنت وأفكارك إلى الجحيم، أشكر الله الذي فضحك أمامي منذ البداية فأنت لست إلا إنسان متخلف ومتشدد لا تعرف معنى التمدن والتحضر والإنفتاح.

قاد مصطفى سيارته بكل سرعته فلم تكن إلا ربع ساعة حتى وصل البيت ودخل صافقًا الباب خلفه بقوة، دهشت أسرته من هذا التصرف، فلقد اتجه مباشرةً إلى غرفته من غير أن يلقي عليهم التحية والسلام!

خلع خاتم الخطوبة ورماه على الطاولة، استلقى على سريره وأطلق العنان لدموعه، هل هذه هي الفتاة التي كان يتمنى أن يرتبط بها منذ سنوات!!؟

كيف تغيرت بهذا الشكل؟ كيف صارت تنظر إلى المتدينين على أنهم مصدر التخلف في المجتمع؟! لماذا لم تخبرني تقوى بكل هذا؟ أليست صديقتها؟ ثم لماذا لم تخبرني أمي بافكارها وطباعها الجديدة؟ ألم تكن وما تزال الصديقة المقربة لوالدتها؟! ولكن من يدري؟ فلعل أمها لا تعلم بأفكارها أيضًا!!

تلاحقت كل هذه الأسئلة في فكره ولم يتوقف عن طرحها على نفسه إلا حينما سمع صوت طرق خفيف على الباب..

- تفضل!

- زادك الله فضلًا يا ولدي، ولكن ما الذي حصل؟ هل لي أن أعرف!

- لا شيء يا ماما!

- ولكن كيف لا شيء؟ لقد اتصلت مروة الآن وقالت بأن ريحانة منذ أن قدمت إلى هذه اللحظة هي في حالة من البكاء والنحيب!

-لقد أخطأنا الاختيار.. هذا كل شيء!

- ولكن ما الذي تقوله؟ لقد تم عقد قرانكما!

- أماه أرجوك افهميني، لقد توهمت بأن ريحانة ما زالت تلك الفتاة التي تحب دينها أكثر من أي شيء آخر في هذا الكون!

- وما الذي تغير الآن؟ وهل اكتشفت أمرًا آخر!؟

-نعم للأسف.

- ولكن ما الذي تقوله!؟

-هل تذكرين نقاشنا قبل أيام عن نظرة شباب اليوم للدين الإسلامي؟!

-نعم اتذكر!

-للأسف يا ماما.. ريحانة من هؤلاء الشباب الذين أصبحوا ضحية الأفكار السوداوية عن الدين.. إنها لا تحب أن أتحدث معها عن الأمور الدينية، فهي تدعي إننا لا نفهم الدين على حقيقته الناصعة!

- ولكن ما هي حقيقته؟

-تقول أنه دين الحب والسعادة، دين الانفتاح والسهولة، وأن المتدينين أمثالي جعلناه دين التعقيد والتخلف والرجعية عندما جعلناه يحارب التطور والعلم والتمدن!

- ولكن أنت قبل قليل قلت بأنها ضحية لهذه الأفكار! فلماذا لم تناقشها بهدوء يا ولدي؟ العصبية هذه لا تأتي بأي نتيجة!

-لقد حاولت أن أتناقش معها يا أمي صدقيني، لكنها لم تعطني أي فرصة!

- والحل؟

-الحل هو الانفصال!

- أبهذه السهولة؟

-أفضل من أن تتطور الأمور إلى ما لا يحمد عقباه، أمي أرجوكِ أنا لا أشعر بأني سأكون مصدرًا لسعادتها، ولا هي ستكون مصدرًا لسعادتي.. أرجوكِ إفهميني!

-حسنٌ يا ولدي، لكن والدك مصاب بالجلطة الدماغية وأنت تعلم ما هو تأثير هذا الخبر عليه وعلى صحته!

-وما هو المطلوب مني؟

-المطلوب منك أن تؤجل فكرة الانفصال إلى ما بعد عودته من الهند، العملية التي سيجريها هناك ستحسن من صحته بإذن الله تعالى، حينها ممكن أن نخبره بما جرى ونستشيره قبل أن نتخذ أي موقف قد يضر بصحته لاحقًا!

غدًا سيسافر مع عمك ولا نعلم متى يعودان من هناك، فإلى ذلك الحين لا ندري ماذا سيكتب الله لنا، فلعل الله سيكتب لك ولتلك الفتاة الخير والتوفيق!

طأطأ مصطفى رأسه وهو يردد :

- إن كنتِ تقصدين أن علاقتنا مع بعض ستدوم وتنتهي بالزواج فأنا لا أظن ذلك يا أماه!!

قامت الأم من مكانها وقد اختنقت بعبرتها، هاتفت صديقتها وصارت تتكلم معها بصوت منخفض لئلا يسمع زوجها :

- السلام عليك حبيبتي مروة

- وعليك السلام يا صفا، ابشري حبيبتي، هل علمتِ ما الذي جرى بينهما؟

- نعم لكني لن أخبرك الآن، غدًا صباحًا عندما نلتقي في الدوام سأخبركِ بكل شيء.

*****

اجتمعت الصديقتان المهندستان صفا ومروة في مكان عملهما وجرى بينهما هذا الحديث :

- بربك يا صفا أخبريني، لم أنم ليلة أمس من شدة التفكير!

- لا أعرف من أين أبدأ يا حبيبتي، لكن ريحانة لم تعد كما كانت.. هذا كل ما أستطيع أن أقوله الآن، عودي إلى المنزل وخذي ابنتك إلى صدرك، افتحي لها قلبك لتفتح لك قلبها هي أيضًا فالظاهر أن المسافة بينكما صارت كبيرة جدًا فبتّما لا تتحدثان كالسابق!

- ولكن ما الذي تقوليه يا صفا؟ ما بها ابنتي ارجوك!

- لم تعد ريحانة ابنتك كما السابق، انها اليوم ابنة الإنترنت والكتب الغربية، العامان الماضيان كان لهما كل التأثير في تغيير أفكار ريحانة.. هي الآن تتفادى الحديث عن

الدين والعقيدة، لا تربطها برسول الله واهل بيته الكرام أي رابطة، لا تشعر تجاههم بشيء على الإطلاق، حبها وعشقها بات للكتب والصديقات ومواقع التواصل الاجتماعي، لقد اتهمت مصطفى بالتخلف وعدم التحضر والتمدن لمجرد أنه أراد مناقشتها حول حقيقة الدين والخطأ الذي وقعت به عندما فصلت الدين عن العلم والحياة!

وضعت مروة يديها على وجهها وانخرطت بالبكاء، حاولت صفا تهدأتها فلقد انتبه باقي الموظفين لهما، أخذتها إلى حديقة المصنع وهي تسير معها وتسندها من ذراعها، وهناك باحت مروة لصفا بكل ما كانت تخفيه طوال العامين الماضيين :

- ها أنا اعترف لكِ يا صديقتي بأن ابنتي تغيرت كثيرا، فما عادت تلك الفتاة المتدينة التي تبكي عندما تخبرها والدتها بأنها قد تخلع العباءة عند السفر للشمال! لم تعد تلك الفتاة التي تخبر أمها بأن وجهها دون المكياج أجمل وأحلى!

لم تعد تلك الفتاة التي تتسابق مع أمها لأداء الصلاة في وقتها!

لقد تغير كل شيء يا صفا، لكني في سري كنت أدعو الله أن تعود ابنتي لطبيعتها ولمبادئها الأصيلة، وعندما تقدمتم لخطبتها توقعت أن الله قد استجاب دعوتي وأرسل لريحانة من سيعيدها ملاكاً كما كانت من قبل!

- ولكن كيف تغيرت ريحانة بهذا الشكل يا مروة؟

- الخطأ خطأي تركتها مع الهاتف وصديقات العالم الافتراضي، ثم صارت تطلب مني أن آخذها للمكاتب ومعارض الكتب وكنت ألبي طلبها بحجة حبها الشديد للقراءة، ويومًا بعد يوم صرت أراها تؤخر صلاتها، ثم تضع المكياج وعندما صرت أحاسبها كانت تردد على مسامعي دائما : الدين ليس كما فهمتموه يا ماما!!

الدين هو الحياة هو الحصول على السعادة هو الحب.. نعم الحب لا غيره!

وعندما أتى شهر الله كانت تصوم يومًا وتفطر يومًا آخر وهي تقول إن الله لا يريد أذيتنا.. إنه يحبنا!

في الفترة الأخيرة تركت صلاتها نهائيا وعندما سألتها عن ذلك قالت إن الصلاة ليست تلك الحركات الظاهرية الفارغة من المحتوى، صلاتنا هي صلتنا بالله وهي معناه حبنا له وتعلقنا الشديد به!

كانت صفا تستمع لكل هذا وهي مطرقة الرأس، وبعد أن أنهت مروة كلامها وكأن دموعها قد انتهت أيضًا وجفَّ منبعها قالت :

- لا عليكِ يا صفا، هذه الأفكار انتشرت بشكل كبير بين الشباب بل بين كل فئات المجتمع وليس غريبًا أن تصل لابنتك في غفلة منكِ غير متعمدة، لا تلومي نفسكِ كثيرًا فاللوم الأكبر يقع على أولئك الذين تلبسوا بالدين وجاءوا إلينا على شكل أحزاب دينية سياسية، هؤلاء هم من لعبوا الدور الأكبر في تشويه صورة الدين في أذهان الشباب المسلم.

استمري في الدعاء لها فإن أساسها الديني متين وستعود بعد فترة إلى سابق عهدها من التمسك بالمبادئ الإسلامية.. صدقيني!

- هل تعدينني بأنك ستساعديها في ذلك يا صفا؟ فهي لا تقبل النقاش معي مطلقًا، وكلما فتحت الموضوع معها أغلقته بحجة أن هذا النقاش عقيم!!

- كيف أساعدك في ذلك ومن يقول بأنها ستسمع مني؟

- ليس منكِ.. بل من خطيبها، نعم مصطفى إنسان مثقف ومعتدل في مسألة الدين ليس متعصبًا ومعقدًا في مسألة الحلال والحرام وليس منفتحًا إلى درجة ترك حدود الله، وهو صاحب أخلاق عالية، متأكدة من أنه لن يترك الأم وابنتها وحيدتين في هذه الدوامة والحيرة والضياع!

٥

عادت صفا من عملها وتفكيرها منشغل بمصير ولدها وخطيبته، لماذا لم تخبرها مروة بكل هذه الأمور؟! ما الذي يجب أن تفعله الآن وسط كل هذه الأوضاع المتأزمة؟ فالحالة الصحية لزوجها ليست على ما يرام والحالة النفسية لولدها سيئة جدًا، توسلات صديقتها المقربة وحاجتها الماسة إليها، كل هذه الأمور باتت تشعرها بثقل كبير يجثم على صدرها..

دخلت غرفة ولدها فوجدته ما زال نائمًا على غير عادته، نادته بصوت منخفض فالتفت إليها..

- مصطفى هل ما زلت نائمًا يا ولدي؟

- لا يا ماما!

- لم أنم منذ ليلة أمس، التفكير سيقتلني!

- إسمعني يا ولدي، لقد تحدثت مع مروة وظهر بأنها على علم بحال ريحانة لكنها لم تخبرنا، لعلها فكرت بأنك ستكون الوسيلة التي أرسلها الله لهداية ابنتها!

- ولكن يا ماما؟ إنها ومنذ البداية أعلنت عن عدم رغبتها بأي نقاش؟

- نعم وهذا ما قلته لمروة لكنها قالت لي بأن ثقتها بك كبيرة وبأن شهامتك ومروءتك وأخلاقك العالية ستأبى أن تتركها هي وابنتها في تلك الدوامة!

ثم صارت صفا تتحدث مع ولدها عن الظروف التي مرت بها ريحانة والتي جعلتها تتجه هذا الاتجاه البعيد عن الدين، قال وهو يهز رأسه رافضًا كلام والدته :

- صدقيني لا أستطيع، لقد حاولت سابقًا مع صديقي عماد والذي كان له نفس أفكارها، لكني لم أوفق لأنهم للأسف أخذوا صورة قاتمة عن الدين ساعدهم بذلك سوء أوضاع البلاد التي من المفترض أن يكون حكامها متدينين ينتمون إلى أبرز القوى الدينية!!

-وما الحل برأيك؟!

- الانفصال.. لا غير!

- لكن مروة وضعت ثقتها فيك يا ولدي!

-اعذريني يا ماما، ريحانة فتاة عنيدة للأسف الشديد وهكذا فتاة من الصعب ترويضها.

هنا دخلت تقوى وهي تقفز من الفرح وتنادي بأعلى صوتها :

- تعالوا وانظروا نتائج القبولات ، لقد تم قبولي في كلية الهندسة، أما ريحانة فتم قبولها في كلية الصيدلة كما كانت تتمنى والظاهر إنها وضعته أول إختيار في قائمة التقديم وكل هذا لأجلك يا مصطفى ، مبارك عليك يا أخي ستقضي خطيبتك سنوات دراستها الجامعية معك في نفس الكلية!

وضع مصطفى كفيه على وجهه وهو يردد : يا إلهي، ما هذه الورطة؟!

تفاجأت تقوى من ردة فعله فهي لم تكن تعلم بالتطورات السلبية التي حدثت لعلاقة أخيها مع خطيبته.

اقتربت صفا من ولدها وصارت تربت على كتفه وهي تقول :

- لا بأس يا حبيبي.. تذكر قوله تعالى (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا).

*****

بدأ العام الدراسي الجديد وكانت ريحانة مسرورة جدًا بقبولها وخاصة أن صديقة عمرها (يقين) قد قبلت معها في نفس الكلية..

كانت تتوقع أن مصطفى سيرحب بها عند رؤيتها بعد كل هذه الفترة، إلا أنه لم يأبه لوجودها مما زاد من المسافة بينها وبينه، حاولت مرارًا أن تتصل به لكنه لم يكن يفتح الخط أبدًا!

أوصلت له خبرًا بيد تقوى بأنها تريد الانفصال لكنه كان يؤجل الموضوع إلى حين عودة والده من السفر، وها هو الآن يراها ويتصرف كأنه لا يراها!!

لم يجذب نظره إلا وجود (يقين) تلك الفتاة صاحبة العباءة والتي كانت ترافق ريحانة أينما ذهبت، وعندما عاد من الكلية في أحد الأيام سأل اخته تقوى والتي كانت كليتها قريبة أيضًا على كليتهم :

- هل حصل بينكما أي لقاء بينكما أنتِ وريحان هذه الأيام؟

- نعم!

- هل لاحظتِ وجود تلك الفتاة صاحبة العباءة معها؟

- نعم.. إنها يقين الصديقة المقربة لريحانة!

صمت مصطفى وكأنه يفكر بشيء ما!

سألته تقوى بحذر :

- ما الذي تفكر به يا أخي؟

- برأيكِ.. هل أفكارها تشبه أفكار ريحانة؟

- لا أعلم حقًا!

- هل يمكنكِ أن تتحدثي معها غدًا لعلها تستطيع مساعدتنا.

- أهاا.. الآن فهمت، تريد منها أن تتحدث مع ريحانة حول نظرتها تلك عن الدين والمتدينين.. صحيح ؟

- لا يا حبيبة أخيك!

- وكيف تساعدنا إذن؟

-أريد منها أن تقنع ريحانة بقبول صداقة أحدهم على الإنترنت، ليكن ابن خالتها مثلًا..

- ابن خالة ريحانة؟

- لا يا تقوى.. أقصد إبن خالة يقين.

-ومن يكون هذا؟ وكيف عرفته أنت؟

- ما بكِ يا أختي ، أرجوكِ ركزي أكثر معي، إنها أشبه بالخطة، أنا سأقوم بدور ذلك الشخص أقصد إبن خالة يقين وخطيبها المستقبلي..

- ماذا؟ خطيبها المستقبلي! ولكن ما الذي تقوله يا مصطفى؟

- قلت لكِ إنها مجرد خطة لا أكثر يا حبيبتي!

- أهاا.. حسنًا، أكمل!

- ستخبرها يقين بأنني خطيبها المستقبلي.. أقصد خطيب يقين! فقط حتى تطمأن ريحانة لمراسلتي عبر الإنترنت، وسأدخل بإسم مستعار بحيث لن تشك في أمري مطلقًا.

- الآن فهمت.. ستكون الخطة كالتالي :

((تتناقش يقين مع ريحانة حول حقيقة الدين، وعندما لا تقتنع ريحانة ستطلب منها يقين أن تسمح لابن خالتها وخطيبها المستقبلي في التحدث معها عبر الإنترنت لعله يستطيع إقناعها، وهذا الشخص هو أنت)).

- أحسنتِ يا أختي الحبيبة، ليس لدي غير هذه الخطة لأجعل ريحانة تنصت لكلامي دون أن تتحسس أو تتوجس مني خيفة!

- نعم فعلا.. خطة ذكية كيف خطرت على بالك!

- لا أعلم حقًا، لكن اليوم وما إن شاهدت استمرار مصاحبة ريحانة لتلك الفتاة الملتزمة حتى جاءت هذه الفكرة في بالي.

- ولكن كيف إن كانت يقين مرتبطة بشخص آخر وكانت ريحانة على علم مسبق بالأمر؟ كيف إن لم يكن لها ابن خالة أصلًا وكانت ريحانة تعرف بهذا أيضًا؟!

- أوه يا تقوى لا تعقدي الأمر أرجوكِ أخية، لتخبرها بأنني قريبًا لها وليس شرط أن أكون ابن خالتها! أنتِ فقط توكلي على الله وهو سبحانه - إن كان في الأمر مصلحة - سيسهل علينا الأمور.

قالت تقوى بابتسامة خجلة :

- ولكن ألم تكن قد اتخذت قرارًا نهائيًا بفسخ الخطوبة حالما يأتي والدنا من الهند، فما الذي جرى وغيرت رأيك هكذا؟!

اخذ مصطفى حسرة طويلة وهو يقول :

- آه يا تقوى، لقد كسرت ظهري خالتي مروة، اتصلت بي أكثر من مرة وهي تتوسل إليَّ أن لا افسخ خطوبتي بريحانة، هذه فرصتي الأخيرة فإن رأيت فيها مجالًا لتغير فكرتها عن الدين وإلا فسأمضي بما عزمت عليه!

- بإذن الله سيوفقك الله في إيصال الصورة الناصعة لديننا الحبيب لهذه الإنسانة الطيبة، لكني اقترح عليك أن تكون نيتك في النقاش معها هو إيصالها إلى بر الامان وليس لتغير أفكارها من أجل الارتباط بك!

- نعم يا حبيبتي اطمأني، وهذا ما طلبته من الله تعالى عندما خطرت لي هذه الفكرة، وهو أن يساعدني في إنقاذها لأجل مصيرها الأخروي وليس لأجل شيء آخر، أدعو الله أن يوفقني في ذلك حتى وإن لم يكن قد كتب لنا الارتباط ببعضنا.

٦

تحدثت تقوى مع يقين عند أول فرصة جمعتهما لوحدهما، وما كان من يقين إلا أن رحبت بالفكرة وهي تدعو الله في سرها أن يوفقها لإنقاذ مصير صديقتها ولإنقاذ خطوبتها من الفشل.

لم توافق ريحانة في البداية على مقترح يقين إلا أنها رضخت أخيرًا بعد أن هددتها يقين بتركها إلى الأبد!!

وفي المنزل وبعد أن أخذت قسطا من الراحة، فتحت شبكة الانترنت الخاصة بهاتفها فإذا برسالة تصلها على موقعها الشخصي :

- السلام عليكم أختاه، أنا علاء إبن خالة يقين، لقد طلبت مني يقين أن أتحدث معك حول حقيقة الدين الإسلامي فهل أنت موافقة على ذلك؟

كتبت بشيء من البرود :

- نعم مستعدة، تفضل!

- في البدء هل فعلًا إنكِ كنتِ من الملتزمات جدًا بالدين وبالتحديد قبل عامين من الآن؟

- نعم فعلاً.

- وما الذي حصل أخيتي حتى حصل لكِ هذا التغيير المفاجئ؟

- ليس مفاجئاً بل هو ردة فعل طبيعية لكل ما رأيته أمامي!

- وما الذي رأيته بالضبط؟

- رأيت أناسًا يعتنقون الدين كذبًا وزورًا، رأيت أناسًا قد استخدموا الدين لأجل مصلحتهم الشخصية ولأجل الحصول على السمعة الطيبة لا غير، في حين إنهم بعيدون كل البعد عن تعاليم الدين!

رأيت أناسًا يُحرّمون كل شيء على الآخرين بينما يُحلِّلون كل شيء لأنفسهم!!

رأيت أناسًا جاءوا إلى بلدنا بلباس الدين ففرحنا، فإذا بهم ممسوخين ليس من الدين فحسب بل من الانسانية جمعاء!!

رأيت أناسًا متدينين يسرقون خيرات وطنهم وحقوق شعبهم ثم يعطونها لأولادهم وبناتهم ليستمتعوا بها خارج البلاد دون أي مخافة من الله!!

هذا هو الدين يا أخي الكريم، فكيف تريد مني بعد ذلك أن أبقى من المتدينين؟!!

كان مصطفى يقرأ ودموعه تجري على خديه فلقد ذكره منطق خطيبته بمنطق صديقه عماد والذي أدت به حيرته وصدمته بأهل الدين إلى الإنتحار وخاصة أنه كان من عائلة تقدس الدين إلى أبعد الحدود!!

أغلق هاتفه ومسح دموعه وهو يردد :

رحمك الله يا عماد، لقد حاولت أن أوضح لك خطأ تفكيرك لكن صدمتك كانت كبيرة، وها هي خطيبتي تفكر الآن بنفس تفكيرك الخاطئ وكأنك نفضت تراب قبرك لتعود إلى مراسلتي من جديد.. يا إلهي ماذا أفعل؟

قام من سريره واتجه إلى سجادة صلاته وفرشها ثم هوى ساجدًا باكيًا وهو يتوسل إلى الله بالقول :

- إلهي ماذا إن كان مصير ريحانة كمصير عماد؟! حينها ستخسر هذه الفتاة الطيبة دنياها وآخرتها؟! إلهي ساعدني أرجوك لأساعد هذه الفتاة، إلهي لين قلبها لدينك، إبعد عن عينيها الغشاوة التي فرضتها الظروف القاسية، كن بعونها يا الله وكن بعون جميع الشباب الذين لديهم آباءًا مؤمنين يتمنوا أن يكون أولادهم قرة أعينٍ لهم في الدنيا والآخرة.

قام من سجادته واتجه نحو السرير عاد ليفتح جهاز الهاتف فوجد أن بريد ريحانة ما زال في حالته النشطة وهذا يعني أنها ما زالت موجودة على الهاتف، كتب لها :

- كل ما كتبتِه صحيح وهؤلاء الذين شوهوا صورة الدين الحنيف هم من سيحملون أوزارهم وأوزاركم لأنكم بسببهم تركتم دينكم السمح وتمردتم على تعاليمه المقدسة، لكن هذا لا يمنع أن تكونوا محاسبين أمام الله لأنكم صرتم تقيسون الدين بالرجال بينما الصحيح أن نقيس الرجال بالدين!!

فها أنا أسألك أختاه : إذا إنحرف المسؤول عن خط الإسلام الصحيح فهل يجب أن ننحرف نحن أيضًا بحجة أن المسؤول انحرف؟! لماذا ننتقده إذن؟! لماذا لا نبحث عن أهل الدين الحقيقيين وندرس صفاتهم وطباعهم ومبادئهم؟ هل هم كالمسؤولين في بلادنا؟ هل هم يشبهون أولئك الذين تلبسوا بالإسلام زورًا وكذبًا؟

جاءه ردها :

- طبعًا هم ليسوا كذلك!

- إذن لما انحرفنا عن خطهم؟ لماذا تركنا ما يدعوننا إليه وصرنا نحاربهم ونحارب الدين الذي دعوا إليه بحجة أن هناك من استغلوا الدين لمصالحهم، ما هو ذنب الدين إن كان قد ابتلي بأناسٍ منافقين إلى هذه الدرجة؟!

- لو ألقينا نظرة إلى تاريخ الإمام علي عليه السلام في فترة حكمه.. ماذا يمكن أن نرى؟

- لا أعلم بالضبط.. ماذا يمكن أن نرى؟

- سنرى حاكما ينام جائعًا خشية أن يكون هناك في دولته من هو جائع! تعالي معي لنقرأ في كتاب (نهج البلاغة) الذي جمع أشهر خطب مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام ففي إحداها عندما يسأله أصحابه عن زهدهُ في الدنيا رغم أنه يملك بيت مال المسلمين يقول : " أأقنع من نفسي بأن يُقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟ "

ثم يقارن بين نفسه وبين حكام الدنيا بالقول :" فما خُلقتُ ليشغلني أكل الطيبات ، كالبهائم المربوطة همّها علفها! "

- ولكن يا أخي إن كان هذا هو منطق الإمام علي عليه السلام أفليس من الصحيح أن يكون حكامنا التابعين له يحملون نفس صفاته ويفكرون بنفس المنطق! لماذا نراهم على عكسه تمامًا؟!

كتب لها :

- وهذا ما شوه صورة المذهب الجعفري لدى عامة الناس أختاه، لأنهم صاروا يرون ديننا ومذهبنا متمثلًا بهؤلاء الحكام والساسة والحقيقة أن هؤلاء الذين يدعون انتمائهم للمذهب الجعفري وولائهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام أنما يعتبرون الاتباع والولاء في الكلام فقط! فأنا عندما أحب الإمام علي عليه السلام يعني أنني أملك صك الشفاعة منه وسأدخل الجنة على رغم أنف الجميع مهما كانت أفعالي سيئة وقبيحة! وهم بهذا التفكير حالهم حال أولئك المتصوفة الذين يدعون حبهم لله تعالى ويفعلون أنواع المعاصي والذنوب بحجة أن حبهم لله سيشفع لهم في دخول جنته رغمًا عن أنف الجميع!

******

قضت ريحانة ليلتها تلك وهي تفكر في كلام علاء عن الحكم الديني العادل المتمثل بحكم الإمام علي عليه السلام والفرق الكبير بينه وبين من هم يدعون اليوم موالاته لكنهم لا يحملون ذرة من عدله وحكمته ورحمته!

عادت لتتذكر ذلك الحلم الذي يبشرها بقرب الثورة على هذا الحكم الظالم، تذكرت ذلك الشاب الذي كان يمسك بيدها بقوة وسط حشود المتظاهرين، لقد توقعت انه مصطفى بعد أن امسك يدها في أول يوم لعقد قرانهما، أما الآن فهي لا تصدق أن يكون هو!

سحبت الغطاء على وجهها في محاولة لإبعاد الأرق عنها والاستسلام للنوم، قالت وقد غطت وجهها بالكامل وأغمضت عينيها : من المستحيل أن يكون ذلك الشخص هو نفسه مصطفى! فإن الذي رأيته كان إنسانًا ثوريًا بمعنى الكلمة، أما مصطفى فمن غير الممكن أن يثور على هذه الحكومات الدينية لأنه يحمل نفس أفكارها الزائفة!

جاءها صوت الضمير مؤنبًا : ومن يقول إنه يحمل أفكارها الزائفة؟ قد يكون إنسانًا متدينًا وفي نفس الوقت محبًا للعدل والمساواة مقتديًا اقتداءًا فعليًا بذلك الحاكم العادل علي بن أبي طالب؟!

٧

في اليوم التالي اتجه مصطفى إلى حيث إجتماع شباب كربلاء للحراك الشعبي، حيث كان هو من ضمن هذا الحراك ، وهناك ناقشوا أهم الأمور التي عليهم فعلها بالتعاون مع الجهات الجماهيرية الأخرى في كافة مناطق العراق لزرع الوعي والثقافة لدى الشعب في مواجهة فساد الحكومات الحالية..

بعد ذلك الاجتماع اتجه مصطفى إلى الكلية حيث أن محاضرة الساعة الحادية عشر كانت مهمة جداً ولا يمكن تفويتها، ولما كان ما يزال هناك المزيد من الوقت فقد قرر الجلوس في حديقة الجامعة لولا شعور إنتابه بإحساس شديد وحاجة ماسة لرؤية ريحانة!

قال في نفسه : ولكن مالي وما لها؟! هل أريد أن أمثل دور الخطيب المشتاق لمخطوبته؟!

أكمل طريقه نحو الحديقة إلا أن صوتًا ما تردد في داخله :

- هي ما زالت على ذمتك، أنت زوجها الآن وولي أمرها، حاول أن توضح لها هذا الشيء!

غيّرَ طريقه واتجه نحو قاعة المرحلة الأولى فلم يجدها، عاد إلى الحديقة فوجدها تجلس هناك وبيدها كتابًا تقرأه!

جلس تحت إحدى مظلات الحديقة بحيث تكون ريحانة في الجهة المقابلة له تمامًا..

في البداية لم تنتبه لجلوسه، كان يجلس وهو يطيل النظر إليها ويتذكر كلماتها التي كتبتها له بصفته علاء ليلة أمس!

هنا انتبهت ريحانة لوجوده، بل وانتبهت حتى لنظراته الحانية نحوها!

ارتبكت قليلًا ثم صارت تتساءل مع نفسها : ولكن ما الذي يريده مني؟ لماذا يرمقني بهذه النظرات؟ هل.. هل يريد أن يفهمني بأنني ما زلت امرأته شرعًا؟

في هذه الأثناء جاءت يقين وما أن رآها مصطفى حتى ترك مكانه بسرعة متوجهًا نحو قاعته.

رأت يقين ارتباك صديقتها وقلقها، قالت لها وهي تجلس بقربها :

- ما بكِ حبيبتي؟ لماذا أراكِ مرتبكة هكذا؟!

مدَّت يدها نحو ريحانة فوجدتها باردة مرتجفة، قالت بذهول :

- ولكن ما الذي حصل؟ بربكِ أخبريني يا ريحانة؟

وضعت ريحانة رأسها في حجر صديقتها وصارت تبكي، بكت بقوة حتى أن بعض الطلاب انتبهوا لها!!

رفعت يقين رأس ريحانة من حجرها بهدوء وهي تتوسل إليها أن تخبرها الحقيقة..

مسحت ريحانة دموعها وهي تقول :

- لقد كان مصطفى هنا قبل قليل، كان يرمقني بنظرات لم أفهم المقصود منها؟ وكأنه يحاول أن يذكرني بأني ما زلت امرأته شرعًا.. لقد تعبت يا يقين تعبت صدقيني، لماذا يعاملني مصطفى بكل هذا الغموض؟ لماذا؟

عادت إلى حالة البكاء بينما طلبت منها يقين الهدوء دون جدوى!

أما مصطفى فلقد قرر العودة إلى حيث تجلس ريحانة عندما التقى ببعض أصدقائه في الطريق وقد أخبروه بأنهم يريدون الذهاب إلى المكتبة، قرر الذهاب معهم ليس لأنه محتاج إلى استعارة كتابٍ ما بل لأنه ما زال بحاجة إلى رؤية ريحانة قبل أن تترك مكانها وتدخل القاعة!

عندما لاحت له ريحانة تفاجأ من منظرها، إنها تضع رأسها في حجر يقين وتبكي بشدة!

انتبهت يقين إلى وجود مصطفى وهو يقترب منهما مع أصدقائه، قالت وهي تهز كتف ريحانة بقوة :

- انهضي يا ريحانة، لقد عاد مصطفى!

قامت ريحانة واتجهت نحو المغاسل بسرعة فهي لا تريد أن يرى مصطفى إنكسارها ذاك!

بقت يقين جالسة لوحدها وهي تنتظر قدوم صديقتها، استغل مصطفى عدم وجود ريحانة فاتجه نحو يقين وألقى التحية :

- مرحبا أختي ..

- أهلا بك أخي مصطفى!

- هل.. هل ريحانة بخير؟ لقد رأيتها تبكي!

- نعم للأسف!

- وما بها؟ هل أصابها مكروه لا سمح الله؟

- لا أعرف ماذا أقول يا أخي لكنها تعاني من الحيرة.. فهي محتارة في أمرك! لماذا تصدها وتعاملها بجفاء منذ النزهة الأولى لكما، ولماذا الآن تحاول أن..

- أحاول ماذا؟

- لا أعلم أخي .. حقًا لا أعلم! هي تظن بأنك تحاول استمالة قلبها وكذلك تحاول أن تذكرها بأنها ما زالت على ذمتك!

وهنا عادت ريحانة وإذا بها ترى يقين تقف مع مصطفى وهما يتحدثان بكل هدوء!

شعرت بالنار تغلي في عروقها، اتجهت نحوهما ومن غير أن تلقي التحية سحبت مصطفى من ذراعه وابتعدت به عن يقين وهي تردد بغضب :

- هل وصلت بك الوقاحة إلى هذه الدرجة؟ ما الذي تريده من صديقتي؟ لا تقل لي بأنك معجب بها لأنها ملتزمة وترتدي العباءة و..

ضحك مصطفى بقوة ومن غير ارداته سألها :

- هل تغاري على خطيبك من صديقتك!! ها؟ كوني صريحة؟

ارتبكت وهي تجيب :

- من؟ أنا؟ أغار عليك؟ لا.. لا طبعًا!

خفضت ريحانة رأسها فلمحت خاتم الخطوبة في يد مصطفى، سألته بدهشة :

- لكن ما هذا الخاتم؟

قال بابتسامة واضحة :

- لا تغيري الموضوع يا عزيزتي!

قالت بعصبية :

- أولاً لست عزيزتك.. ولو كنت كذلك لما عاملتني بكل هذا الجفاء طوال هذه الفترة!

وثانيًا لا تتهرب أنت من الإجابة، ما هذه الحلقة الفضية التي ترتديها في يدك اليمنى، ألم نتفق على الانفصال قريبًا؟

- إنني أرتديها منذ العام الماضي يعني منذ أن كنت في المرحلة الأولى وقبل أن أخطبكِ أصلًا، وذلك لأُبعد أنظار الفتيات عني لا غير!

قالت وهي تحاول إثارة غضبه :

- وعلى أي شيء تنظر الفتيات إليك؟ صحيح أن شكلك يجذب الأنظار لكنه في النهاية مجرد شكل، ليقتربن منك أكثر وليعرفن أي شخصية عنيدة ومعقدة تنطوي خلف هذا الشكل الجميل!!

- حسنًا أتركينا من هذا الآن فلا يهمني رأي الفتيات لا بشكلي ولا بشخصيتي، أنتِ تشعرين بالغيرة عليَّ وهذا من حقكِ فأنا في التالي ما زلت خطيبكِ وكما إنكِ سمحتِ لنفسك بالإفصاح عن مشاعر الغيرة تجاهي فأنا أيضًا من حقي أن أفصح لخطيبتي عن مشاعر الغيرة التي تنتابني عليها!

- وما الذي يجعلك تغار على خطيبتك؟ فهي لا تقف مع الرجال وليس لديها أي صديقات سوى واحدة وهي يقين تلك الفتاة الملتزمة بنظرك، ماذا تريد أكثر من هذا؟

- وملابسكِ الضيقة هذه؟ أليس من حق زوجك فقط التمتع بمفاتنكِ؟ وأدوات التجميل التي تستخدمينها والتي تجعلك في نظر الرجال كالعروس بل أجمل! هل تريديني بعد كل هذا أن لا أغار؟!

- ولكن من قال أن المرأة يجب أن تحجب مفاتنها عن الرجال إلا عن زوجها؟ إن الله أعطى جمالاً للمرأة وأراد لها أن تستمتع بإظهار جمالها، يعني أنني أريد أن أبرز مفاتني وجمالي لأجلي أنا ولا يهمني من ينظر إليَّ بإعجاب أم لا!

قال مصطفى وهو يحاول أن يبدو هادئًا :

- تعالي لنجلس معًا.. أرجوكِ غاليتي!

- قلت لك بأني لستُ غاليتك! ولن أجلس معك إلا إن وعدتني أن لا تعطيني أي نصائح في الدين!

- ولكن لماذا تعتبرينها نصائحًا؟ إنها مجرد نقاش.

- أعذرني لا أحب النقاش مع المتدينين، سيصدعون رأسي بأحاديث أنا أصلًا لا أعترف بها جملة وتفصيلا، إن لي ديني الجميل.. دين الحب والجمال والسعادة، لا دين البؤس والتباؤس والتعقيد!!

حاولت أن تبتعد عنه فأمسكها من يدها وهو يقول :

- لكنكِ تتناقشين مع رجل غيري عبر الإنترنت! وأنتِ تتقبلين منه أي كلمة يقولها وتردّين عليه بكل أدب إن لم تعجبك نصائحه! فلماذا لا تتصرفين معي بالشيء نفسه!

تعجبت ريحانة من معرفته بأمر علاء، قالت بألم :

- هل أخبرتك يقين بكل هذا؟ ولكن كيف تكلمتما بكل هذه التفاصيل وبهذه العجالة؟ لم أتركها لوحدها إلا عشر دقائق لا أكثر!

شعر مصطفى بخطئه في التحدث عن علاء، قال في نفسه : لقد أوقعت تلك المسكينة يقين في مأزق لا تحسد عليه!

تركته ريحانة واتجهت نحو يقين لتفرغ جام غضبها عليها، بينما بقت الصديقة الوفية صامتة فما عساها أن تقول!!

٨

في المساء وعلى مائدة العشاء سألت مروة ابنتها :

- مالي أراكِ حزينةً حبيبتي؟

- آه يا ماما.. ماذا أقول؟ انه مصطفى..

- مصطفى؟ وما به؟

- لا يتركني بحالي مطلقًا!

- لكن يا ريحانة هو ما زال زوجك شرعًا.. أم نسيتي بأنكما معقودان لبعضكما؟!

- لا يا ماما لم أنسَ ذلك .. لكنه طوال شهر كامل يتصرف وكأنه لا يعرفني، فلا أعلم ما الذي حدث له اليوم! لقد أخبرني بأنه يغار عليّ ويتمنى أن لا أرتدي ملابس ضيقة ولا أضع الماكياج!

- هذا جيد جدًا، فلولا حبه لكِ لما طلب منكِ هذه الأمور.. صدقيني يا بُنيتي!

- لكن يا ماما.. هذا أكبر دليل على أنه شاب معقد يريدني له فقط وكأني حاجة من حاجياته الشخصية التي اشتراها بأمواله! أنا في النهاية فتاة لي تطلعاتي في هذه الحياة.. لي شخصيتي، لماذا يريد أن يفرض رأيه على حياتي منذ البداية؟!

صمتت الأم فهي تعلم أنه ليس من السهولة مناقشة ابنتها في هذه الأمور، لكنها في سرها كانت سعيدة لتطور الأمور إلى هذه الدرجة بين مصطفى وريحانة فهذا يدل على أن مصطفى ما زال يريد أن يرتبط بابنتها!

قضى مصطفى تلك الليلة وهو يتقلب في فراشه وبين لحظة وأخرى يفتح الهاتف لعل هناك رسالة وصلت من ريحانة لصفحته الثانية والتي كانت بإسم علاء، ولكن دون جدوى!!

في صباح اليوم التالي ذهب مباشرة إلى قاعة ريحانة ليطمئن على أحوالها فتفاجأ بملابسها التي كانت أكثر ضيقًا عن يوم أمس، أما المكياج فكان أكثر وضوحًا وأكثر جاذبية!!

خفض رأسه وهو يشعر أن الدم صار يغلي في عروقه، إنسحب من قاعتها بهدوء لكنها تبعته بعد أن رأت تواجده..

- مصطفى قف لحظة!

وقف ودون أن يلتفت إليها قال بأدب :

- تفضلي أختاه!

- ماذا ؟أختاه! هل هذا آخر ما توصلت إليه؟

- نعم للأسف! يوم أمس عندما ناديتك عزيزتي وغاليتي لم تقبلي، والآن يجب أن تقبلي بهذه الكلمة فليس بيني وبينك إلا رجوع والدي، صدقيني بعدها سينتهي كل شيء، عنادك وعدم احترامك يجعلني اتأكد من مصير ارتباطنا معًا.. نعم فمصير هذا الارتباط الفشل صدقيني.

تركها ومضى بينما هي تفاجأت من حرارة دموعها التي صارت تلفح وجهها، ذهبت إلى المغاسل وأزالت تلك الاصباغ الكيمياوية من وجهها وهي تردد :

- اللعنة عليكِ أيتها الدموع ، دائمًا تفضحين أمري، ليتني لم أكن عاطفية إلى هذه الدرجة!

قالت ليقين وهي تتمشى معها في أروقة الجامعة :

- اليوم سأعود لمحادثة علاء، أريد أن اتكلم معه عن خطيبي.. أنا أرى علاء أكثر فهمًا وتعقلًا من مصطفى وسأستشيره في أمر خطبتي.. ماذا تقولين ؟

- لقد قررت أن لا أتدخل بينكما يا ريحانة، لذلك لا تأخذي رأيي في موضوع خطبتك مرة أخرى إن كنتِ تريدين لصداقتنا أن تدوم.

- حسنٌ حسنٌ.. على راحتكِ!

بعد أن أكمل مصطفى فرضَي المغرب والعشاء وبينما كان ساجدًا يدعو الله أن يهيأ له من أمرهِ رشدا سمع صوت رسالة من هاتفه النقال، لملم سجادته بهدوء واتجه نحو الهاتف فتحه فإذا بها رسالة من ريحانة لعلاء كتبت فيها:

- أخي علاء عندي سؤال مهم : من يقول أن الدين الذي وصل إلينا إلى الآن هو نفسه الدين الذي دعى إليه محمد وأهل بيته؟ الا ترى أن العلماء يعقدون علينا كل شيء من خلال تحريم الكثير من الأمور التي لا داعي لتحريمها؟

ما بها الأغاني مثلًا؟ أو أدوات المكياج التي تزيد من جمال المرأة؟ أوليس الله جميل ويحب الجمال؟ أليس هذا من الحديث الشريف؟

كتب لها :

- إن ديننا الحنيف لا يحرم شيئًا إلا وفي هذا التحريم مصلحة كبيرة للإنسان، فالغناء أو تبرج المرأة وغيرها من المحرمات كلها ثابتة الحرمة في كتاب الله وبالأدلة القطعية!

ولم يكن للعلماء دور في هذه الأحكام إلا في إيصالها لنا وإيضاحها بعد استنباطها من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

- أنا ليس لدي مشكلة مع القرآن يا علاء، مشكلتي مع سنة الرسول وأهل بيته من قال إن هذه الأحاديث كلها صحيحة؟ قد تكون موضوعة من قبل أناس لهم مصلحة في وضعها!؟

- لقد أوضح لنا أهل البيت عليهم السلام الطريقة الصحيحة لمعرفة ما إذا كان الحديث صحيح أم لا؟

- وما هي هذه الطريقة برأيك؟

- نعرضه على كتاب الله فإن وافقه فسنأخذ به وإن لم يوافقه فسنضرب به عرض الحائط!

- حسنٌ جدًا إن أمكن هل أستطيع أيضًا أن أستشيرك في أمر مهم بالنسبة لي؟

كتب لها وهو يشعر بالإضطراب مما تريد أن تتكلم به خطيبته :

- نعم أختاه تفضلي.. في خدمتك إن شاء الله.

- أنا مخطوبة من شاب قبل فترة ليست بالطويلة، والآن نحن ندرس سوية في نفس الكلية، هو يفرض عليَّ أن ألبس الجبة الإسلامية أو أي ملابس على أن تكون واسعة وفضفاضة وأن لا أضع المكياج، حقيقة هو يريد أن يفرض عليَّ ذلك فرضًا دون قناعة مني؟!

شعر مصطفى بأن أعصابه لم تعد تحتمل وقاحتها، حاول أن يكون هادئًا وأن يسحبها في الكلام إلى النقطة التي يريد معرفتها، فكتب لها :

- إعذريني يا آنسة ريحانة إن كنت سأتعدى حدودي بالتدخل بينكما لكن هل خطيبكِ هذا إنسان جاهل لا يعرف النقاش؟ لماذا لا يتناقش معكِ قبل أن يفرض رأيه؟!

صدمت ريحانة وهي تقرأ هذه الحروف التي سطرها علاء بحق خطيبها، الأمر ليس كذلك! وهي لم تتعلم الكذب منذ الصغر بل لا تحب النفاق والدجل مطلقًا، لذلك عليها أن تقول الحقيقة كاملة ولا تبتر منها شيئًا..فكتبت بأنامل مرتجفة :

- حقيقة يا أخي هو إنسان مثقف ولكنني لا أعطيه فرصة للنقاش، لا أعلم لماذا لا أريد أن اتناقش معه بأمور الدين!

تنفس مصطفى الصعداء فلو أنها تكلمت بغير هذا لما استطاع أن يكمل معها حواره الهادئ هذا، كتب وقد عاد إليه هدوءه :

- أكثر الناس لا يحبون سماع النصيحة من المقربين منهم في حين أنهم يحبون سماعها من غيرهم!!

- لا أعرف فعلًا، قد يكون الأمر كذلك!

- حسنٌ اختي.. ما هو المطلوب مني الآن؟

- أتمنى أن أعرف أين نجد الدليل على أن مفاتن المرأة يجب أن لا تظهر للرجال ما عدا الزوج؟! وكما اتفقنا دليلك من القرآن لا غير.

- تجدين ذلك في قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن..) النور-٣١

- وهل الزينة هنا هي مفاتن المرأة؟

- وأين تكمن زينة المرأة برأيك؟ طبعا في جسدها! لذلك فرض عليها الدين أن لا تظهر من زينتها إلا الوجه والكفين، وحتى هذين الجزأين يجب أن لا تجعلهما في مقام الفتنة والزينة باستخدام أدوات ومساحيق التجميل وإلّا أصبح عليها محرمٌ إظهارهما كباقي أجزاء الجسد!

- ولكن يا أخ علاء ألا ترى أن هذا إجحاف في حق المرأة؟ فلو كان الله يريدها أن تستر نفسها لسترها هو سبحانه ولم يعطها كل هذه الفتنة والجمال!

- ولكن يا أختاه ألا ترين معي أن لولا فتنة المرأة وجمالها بالنسبة للرجل لما استمرت الحياة ليومنا هذا؟!

- وكيف هذا؟ لم أفهم!

- إنما أودع الله هذا الجمال والفتنة في المرأة لتكون مصدر إعجاب الرجل ومحل سكينته واطمأنانه، وبالتالي سيختارها شريكة لحياته وسيكونان معًا عائلة وينجبان الذرية التي بامتدادها يمتد النسل البشري ولا ينقطع.

شعرت ريحانة بشيء من الاحراج عندما تطرق علاء لهذه الأمور الدقيقة في حياة كلا الجنسين وتفاجأت من جرأته من الحديث معها دون حواجز!!

أما مصطفى فلم يكن يشعر بشيء من هذا لأنه في قرارة نفسه كان يعلم بأن من تستمع لكلماته الآن ما هي إلا إمرأته شرعًا، ولو كانت غير ذلك لما جازف بدخول هذه المحادثة أصلًا!

كتبت ريحانة بعد أن وجدت نفسها مجبرة لإكمال المحادثة وفهم كل شيء عن هذه المسألة :

- حسنٌ ما دام على المرأة أن تجذب إليها الرجل - لغرض الزواج واستمرار النسل البشري - فلماذا يمنع الدين أن تبرز المرأة جمالها ومفاتنها للمجتمع؟! أليس في هذا تناقضًا واضحًا؟!

- لا.. لا يوجد تناقض بالمرة، فالمرأة يجب أن تكون فاتنة في عين زوجها فقط لا في أعين الرجال جميعهم!

- ولكن كيف تنال إعجاب الرجل الذي سيكون زوجها المستقبلي إن كانت تخفي أبرز مظاهر جمالها عنه؟!

- نحن نعرف أن الوجه هو أجمل ما يمكن أن يصف الإنسان، والله سبحانه وتعالى لم يأمر المرأة بحجب وجهها عن الأنظار ولا حتى يديها، كما يمكن للرجل أن يختار الزوجة على أساس شخصيتها كإنسانة ستشاطره العمر كله، أما أن يعتمد على جمال جسدها وما تملكه من مغريات ومفاتن فهذا الزواج لن يدوم طويلًا خاصة إن كانت طباع تلك المرأة غير جميلة، وأفكارها لا تقارب أفكاره، وصفاتها الروحية لا تشبه صفاته!!

- حسنٌ.. إن كان بالإمكان للمرأة أن تظهر للآخرين وجهها فما الضير إن اهتمت به وذلك بزيادة جماله وجاذبيته؟! لماذا حرم الدين استخدام أدوات الزينة والتجميل؟

- لأن زيادة الفتنة والجاذبية سينعكس سلبًا على حياة المرأة، فشهوة الرجل والنفس الأمارة بالسوء ووجود الشيطان في حياة البشر كل هذا سيستغل تلك الفتنة الزائدة لإلحاق الأذى بالمرأة عندما يطمع كل من يراها بالتقرب إليها وخاصة أصحاب النفوس المريضة الذين قد يؤذونها ، لذلك أراد الله أن يحفظ لها كرامتها ومكانتها في المجتمع، وحتى تسير بين الجميع بانسانيتها لا بأنوثتها.. لذلك كله أمرها بالحجاب! قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ..)

- أشكر لك تحملك لكثرة أسئلتي وحسن إجابتك عليها.

- الشكر لله.. أختاه.

تنفس مصطفى الصعداء وأطلق زفرة قوية تدل على مدى اضطرابه وارتباكه خاصة في نهاية المحادثة حينما كتب لها (الشكر لله.. غاليتي) ولولا فضل الله الذي جعله ينتبه في اللحظة الأخيرة لكان قد ارتكب خطأً كبيرًا!! فهي إما ستعتبره إنسانًا متلونًا كحال بعض المتدينين اليوم فحاول استمالة قلبها بهذه الكلمة! وإما ستشك في أن من يحادثها هو نفسه خطيبها!

صحيح أن الاحتمال الثاني ضعيف جدًا، ولكن الاحتمال الأول لو حصل فسيخرب عليه خطته كلها!

أخذ مسبحته بيده وصار يدير خرزاتها بهدوء وهو يشكر الله على توفيقه له في إتمام هذه المحادثة على خير.

٩

في صباح اليوم التالي فتحت ريحانة خزانة ملابسها لتنتقي ما ستلبسه اليوم فتذكرت طلب مصطفى وشعرت ببعض الضيق، رددت مع نفسها : ما أجمل لو كنت مقبولة في كلية أخرى! على الأقل سأكون بعيدة عن أنظار مصطفى! ثم تذكرت كلمات علاء وهو يخبرها عن الأذى الذي قد يلحق الفتاة إن هي أظهرت مفاتنها للجميع!

أخذت قميصًا ضيقًا وجلست على السرير تتذكر ما حدث لها يوم أمس في الجامعة عندما لبست نفس هذا القميص! لقد كانت عيون الشباب تلاحقها بنظرات مريضة، أكثر هؤلاء يتمنون لو أنهم يقيموا معها علاقة عاطفية لكنهم نفسهم إن قرروا أن يختاروا شريكة المستقبل فسيكون اختيارهم تلك التي تحاول ستر مفاتنها عن الأنظار!!

قالت مع نفسها يُحتمل أن يكون الأذى الذي أراد الله أن يمنعه عن المرأة عن طريق الحجاب هو ليس أذىً جسديًا فحسب! بل قد يقصد منه الأذى المعنوي أيضًا، فكم من فتاة أو امرأة انكسر وتفطر قلبها نتيجة ترك الرجل لها بعد أن عقد معها علاقة غير شرعية حتى وإن كانت علاقة عبر النظرات أو الهاتف أو الرسائل فقط!!

شعرت لأول مرة بحكمة الحجاب وبأنه فعلًا صون لكرامة المرأة وحفظ أنوثتها وإنسانيتها معًا.

في الكلية تفاجأ مصطفى برؤيته لريحانة وهي ترتدي ملابسًا محتشمة مع القليل من المكياج!

خفض رأسه ليخفي إبتسامة كانت قد ارتسمت على شفتيه، أما هي فاتجهت نحوه وبكل ثقة قالت :

- لقد تكلم معي علاء وإقتنعت أخيرًا بصحة كلامك!

ضحك مصطفى من كل قلبه فهو لم يعد باستطاعته إخفاء فرحته عنها وهو يقول :

- أنا أشكر الله الذي وضع علاء في طريقك، إنه يساعدني كثيرًا في أمر إقناعك!

نظرت إليه ريحانة بدهشة مع بعض الريبة، شعر مصطفى بالقلق تجاه نظرتها هذه وقال في نفسه : لعلها الآن تتساءل لماذا لا أغار عليها من علاء؟ يجب أن أتلاحق الموقف!

أردف وهو يحاول أن يبدو جادًا بعض الشيء :

- كما إنني أحسده لأنه عرف كيف يكسب ثقتك، بينما أنا إلى الآن في حسرة أن تجلسي وتتناقشي معي حول أمور الدين والدنيا!

- إن علاء يناقشني بأدلة من القرآن دون تعصب أو تعقيد!

- ولكن هل أعطيتني فرصة للتحدث معك بكلمة واحدة منذ خطوبتنا؟ فما أن أبدأ بالكلام حتى تغلقي الموضوع! لا بأس الآن.. سأدعو الله لذلك الشاب بالتوفيق من كل قلبي، لكن احذري منه فبعض الرجال يدخلون للنساء من باب النصح والإرشاد ثم يبدأون بالانصياع لأوامر الشيطان في سحب المحادثة لأمور أخرى والعياذ بالله!

- لا.. إطمأن إنه انسان مؤدب جدًا وملتزم بتعاليم دينه.

شعر مصطفى بأنه يريد أن يبقى وقتًا آخر معها لولا رؤيته لزملائه من بعيد فاعتذر منها واتجه نحوهم.

قال له زميله حسن بعد أن انضم إلى مجموعتهم :

- بالأمس كنت تقف مع تلك الفتاة صاحبة العباءة، واليوم مع صديقتها.. ما الذي يدفعك لترك فتيات مرحلتك واللحاق ببنات المرحلة الأولى؟!

نظر إليه مصطفى بغضب وهو يقول :

- سامحك الله! انهما من معارفي يا أخي، والكلية جديدة عليهما لذلك هما في حاجتي الآن.

إعتذر حسن عن سوء ظنه وأسلوبه القاسي في الكلام، ثم قال محاولاً تغيير الموضوع :

- هل سنجتمع اليوم مع باقي شباب الحراك؟

أجابه مصطفى :

- نعم.. أحسنت التذكير، يا شباب يجب أن نكون اليوم جميعنا هناك فسنناقش موضوع هام جدا وهو كيفية استثمار النشر الإلكتروني والمدونات الشخصية في تثقيف شعبنا وكشف أبرز مظاهر الفساد الحكومي وفي كافة المجالات وبالأدلة الموثوقة.

****

إتجهت ريحانة بعد المحاضرة الأولى إلى حيث قاعة مصطفى فلم تجده هناك ووجدت فتاة كانت تعرفها مسبقًا في الدراسة الثانوية فسلمت عليها وجلست بقربها، وبعد السؤال عن أحوالها قالت ريحانة بشيء من الارتباك :

- ماذا تعرفين عن مصطفى؟

- تقصدين مصطفى الذي في مرحلتنا!؟

- نعم.. هو بعينه!

- إنه إنسان محترم جدًا.

- أراه يرتدي خاتم الخطوبة.. صحيح ؟

- نعم، لقد تفاجأنا هذه السنة بخبر خطوبته!

- هل يعني هذا أنه لم يكن يرتدي ذلك الخاتم منذ العام الماضي؟!

- لا طبعًا!

رددت ريحانة مع نفسها بكل استياء :

- أيها المخادع! تحاول أن تبدو أمامي ذلك الخطيب الذي يريد أن ينهي علاقته بخطيبته بأسرع وقت، بينما أراك تضمر شيئًا آخر!

- ريحانة؟ أين سرحت بكِ الأفكار؟ لا تقولي بأنكِ معجبة بمصطفى؟!

ارتبكت وهي تجيبها :

- من؟ أنا! لا طبعا.. وما الذي يميزه عن بقية الطلبة حتى ينال إعجابي!

ضحكت الفتاة وهي تقول :

- أقطع يدي اليمنى إن لم تكوني معجبة به! فهو من الشباب الذين يتميزون بامتلاكهم معجبات كثيرات في الجامعة لكنه لا يأبه بأي واحدة منهن!

أحست ريحانة بأن مشاعر الغيرة تجاه خطيبها صارت تتأجج شيئًا فشيئًا، قالت وهي تحاول إخفاء تلك المشاعر :

- ولكن برأيك.. ما الذي يجعله غير آبه بكل تلك المعجبات؟

- أولًا هو إنسان ملتزم بتعاليم الدين جدًا وهذا بطبيعة الحال يمنعه من تكوين أي علاقة مشبوهة مع أي فتاة، وثانياً يظهر من كلامه عن خطيبته بأنه يحبها كثيرًا

ومنذ سنوات طويلة، لكن خطبته لها بشكل رسمي لم يتم إلا قبل فترة قصيرة!

- هل هذا ما أخبركم به هو!

- نعم صدقيني.. لذلك أنصحكِ بنسيان أمره يا ريحانة!

صاحت ريحانة دون أن تنتبه لنفسها :

- ماذا؟ أنسى أمره!

- نعم عزيزتي فهو مرتبط ويحب خطيبته جدًا.

أخذت ريحانة نفسًا عميقًا وهي تقول :

- لا أعرف إن كان عليَّ أن أنسى أمره فعلًا!!

سقطت دموعها بسرعة كما في كل مرة، وقد تفاجأت جليستها من كل هذه المشاعر الجياشة التي تمتلكها ريحانة تجاه مصطفى، قالت بدهشة :

- ما زلتم في الشهر الأول من العام الدراسي انتم طلاب المرحلة الأولى!! فكيف تعلقك قلبكِ به إلى هذه الدرجة؟!

قامت ريحانة وهي تمسح دموعها وتقول :

- إن الذي يربطني بذلك الشاب أكثر من مشاعر الحب أو الإعجاب يا عزيزتي، سيأتي اليوم الذي تعرفين فيه ما هي علاقتي الحقيقية به، أستودعك الله الآن!

وما أن خرجت من القاعة حتى قابلت مصطفى وهو في طريقه إلى القاعة حاول استوقافها لكن حالتها كانت تمنعها من الوقوف، اتجهت إلى المغاسل وأزالت ذلك القليل من المكياج والذي وضعته على وجهها صباحًا خرجت إلى قاعتها الدراسية وهي تشعر بأنها انسانة أخرى!!

دخل مصطفى القاعة فلم يجد إلا تلك الطالبة والتي كانت تتصف بالأدب والأخلاق، فقال في نفسه : هل من المعقول أنها تكلمت مع ريحانة؟!

ألقى التحية وجلس على بعد مقعدين منها ثم قال :

- هل تلك الفتاة أقصد ريحانة تكلمت معكِ قبل قليل؟

قالت بدهشة :

- أراك تعرف اسمها أيضا.. نعم سألتني عنك!

- وماذا سألتكِ بالضبط؟

- عن خاتم الخطوبة ومنذ متى لبسته في يدك؟

- وماذا اخبرتِها أنتِ؟

- أخبرتها بما أخبرتنا أنت عنه، لم أزد على ذلك حرفًا واحدًا.. واعذرني لأني نقلت لها كل شيء! لكني رأيتها مهتمة جدًا بأمرك فأردت أن أقطع آخر أمل عندها بالتقرب إليك.

ابتلع مصطفى ريقه وصار يتساءل مع نفسه :

- إلى متى أبقى أضحك على نفسي؟ متى تنتهي هذه اللعبة بيني وبين ريحانة! إلى متى؟!

قام من مكانه وقبل أن يترك القاعة قالت له زميلته تلك :

- لقد تحدثت ريحانة بشيء غريب وهي تبكي بأسى، اعذرني لفضولي لكنها زميلتي أيضا ولي معرفة مسبقة بها وأمرها يهمني..

قال بتعجب :

- هل فعلا كانت تبكي؟

- نعم.. المسكينة!

- وبماذا تحدثت؟ أقصد ما هو الشيء الغريب الذي أخبرتكِ بهِ؟

- قالت (إن الذي يربطني بذلك الشاب أكثر من مشاعر الحب أو الإعجاب، وسيأتي اليوم الذي تعرفين فيه ما هي علاقتي الحقيقية به).

شعر بشيء من الخجل فما عساه أن يفسر لها كلام ريحانة هذا؟

قال وهو يحاول إنهاء الحديث مع زميلته تلك :

- أرجو أن يبقى هذا الموقف سرًا بيننا إلى أن يأذن الله، أرجوكِ أخيتي، لا تحدثي أيًا كان بما سمعته اليوم من تلك الفتاة.. أرجوكِ!

قالت وهي مستغربة من موقفه هو أيضا:

- لا بأس.. أعدك بذلك يا أخي!

١٠

وفي المنزل وبعد أن صلى فريضتي الظهر والعصر وتناول طعام الغداء دخل مصطفى إلى غرفته ليستريح قبل أن يلتحق بشباب الحراك الشعبي وهناك هجمت عليه الأفكار، تذكر كل ما حدث في يومه الجامعي،شعر بأنه محتاج للحديث مع ريحانة فهي قد تعاني الآن مما يعانيه هو! قرر أن يراسلها من اسمه الحقيقي ليرى مدى استجابتها للحديث معه لكن دون جدوى فلقد رأت إشارة الترحيب التي أرسلها لكن دون رد، ثم اتبعها بعبارة (السلام عليكم) فلم ترد أيضا!

استشاط غضبًا وهو يردد : أستغفر الله العظيم وأتوب إليه، إلهي ما الذي أفعله مع هذه الفتاة؟ لقد أتعبتني بعنادها!!

سجل الخروج من اسمه ودخل باسم علاء ومباشرة جاءته رسالة منها كتبت فيها :

- أخي علاء أرجو أن تسامحني على إزعاجي لك لكني بحاجة إلى الحديث معك!

شعر مصطفى بالسعادة لأنه وأخيرًا سيتحدث معها بكامل الحرية دون عناد أو غضب! ولكنه في الوقت نفسه شعر بالقلق لأجل مستقبلها معه فلقد صارت ترتاح لعلاء أكثر منه!!

إبتسم مع نفسه وهو يقول : ولكن من هو علاء أولست أنا؟!

كتب لها :

- تفضلي أختاه، بماذا أخدمك؟

- حقيقة أنا أنظر للدين على أنه دين الحب، وبأن الله لا يريد منا إلا أن نحبه ثم لنعمل ما نعمل فهذه كلها مظاهر!!

واليوم حدثت بعض الأمور معي في الجامعة فوجدت نفسي مجبرة على التفكير بخطيبي! وهذا يعني إن إقترنت به وكونه إنسان متدين فحينها يجب أن أقوم بتلك الأعمال حتى أكسب وده وحبه، نعم يجب أن أقوم بتلك الأعمال التي ما هي إلا مظاهر كالحجاب والصلاة والصوم!!

- لكن ألم نتحدث عن الحكمة في الحجاب سابقًا؟ وتكلمنا أيضا أن كل أمر محرم أو واجب فإن تشريعه كان لحكمة ومصلحة تعود للإنسان نفسه؟! ثم من قال أن الدين أساسه (الحب)؟ فإن كان هذا قول المتصوفة والمرجئة فلا يعني أنهم على حق!!

- لكن هناك قول للإمام الصادق يقول فيه (وهل الدين إلا الحب)؟!

- نعم صحيح إن كان الإنسان يحب ربه بصورة صحيحة، أما أن نقول نحن نحب الله ثم لا نحب أن نطيعه فأين الحب في هذا؟!

انظري إلى علاقتكِ بخطيبك الآن، فأنتِ تقولين إن أردتِ أن تكسبي حبه ووده فيجب أن تعملي بما يريده منكِ حتى تبقى علاقتكما طيبة ومتوافقة.. صحيح ؟

- نعم صحيح!

- نفس الشيء يحدث في علاقتنا مع الله سبحانه وتعالى، فما الفائدة أن أقول له إلهي أنا أحبك، ثم في الحقيقة تجديني لا أحب أوامره وأتهرب من تأديتها!!

- نعم فهمت قصدك.. لدى المذهب الصوفي أمر آخر وهو أن الإنسان مهما كان عاصيًا فيجب أن لا نبغضه لأن الله خلقنا لأجل الحب، فالزاني والكذاب والسارق وحتى القاتل جميعهم في النهاية بشر ويجب أن نحبهم ونحب جميع المنبوذين لأنهم من خلق الله سبحانه وتعالى وبما أن الله هو مصدر الحب فلذلك يجب أن نحبهم جميعًا.

- ولكن أي تناقضٍ هذا يا ريحانة؟ كيف نحب الله ثم نحب من يعصي أوامر الله؟

عندما يحب الله الإنسان الشريف والطاهر والعفيف فالصحيح واحترامًا لحبيبي (الله) أن أحبه أنا أيضًا وعندما يبغض الله الإنسان الزاني والسكير وتارك الصلاة فالمفروض أن أبغضه أنا أيضًا وإلا فهذا يعني أن حبي لله هو حب غير صادق بالمرة!!

فهل يجوز أن ترحبي في بيتك وتستضيفي من لا تحب والدتك أن تدخليه للبيت؟!

- لا طبعا!

- فالقلب حرم الله فكيف أدخل إليه من لا يحبه الله!

- ولكن هم بشر والله لا يبغض من خلقهم بيده!

- لكن ألم نتفق أن نحتكم إلى القرآن فقط في نقاشنا هذا؟

- نعم.

- هل تعلمين أن الله تعالى ذكر عبارة (إن الله لا يحب) عشر مرات في القرآن الكريم؟!

- ومنها (إن الله لا يحب المعتدين، إن الله لا يحب المفسدين، إن الله لا يحب الكافرين، إن الله لا يحب الخائنين، إن الله لا يحب كل مختال فخور، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما)

فالقرآن وفي آيات صريحة يوضح لنا أن الله يبغض الكثير من البشر نتيجة لعصيانهم أوامره والإمتثال لأوامر الشيطان.. أمثال هؤلاء العاصين ما هم إلا أعداء الله وأولياء الشيطان وأحبائه! فكيف يأتي أصحاب المذهب الصوفي ويدعون إلى حب جميع البشر وحتى العصاة والمذنبين!!

وحتى أكون منصفًا معك فقد وردت عبارة (إن الله يحب) أحد عشر مرة.. ثلاثة منها هي قوله تعالى (إن الله يحب المتقين) وهنا مربط الفرس!

- هذا هو أساس الدين يا أختاه (التقوى) وليس الحب على الإطلاق!

- وهل هناك دليل آخر غير تلك الآية؟

- نعم.. هو قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

- وما معنى أتقاكم؟

- أتقاكم اي أكثركم مخافة من الله، فما معنى أن أخاف الله وهو لم يخوفني بأي عقوبة؟! أليس في هذا مغالطة كبيرة؟! لماذا يريد منا أن نتقيه ونخشاه إن كان لا يضمر لنا إلا الحب؟!

وكيف أن الدين هو الحب فقط ولا يوجد أثر للأعمال؟ فإن كان الأمر كذلك فلماذا وضع الله العقاب الأخروي للعاصين والمعاندين الذين عرفوا أوامر الله فلم يعملوا بها كفرًا وعنادًا؟!

هل العقاب الأخروي غير مذكور في القرآن الكريم؟

- لا أفهم ما الذي تقصده بالعقاب الأخروي؟!

- اقصد به نار جهنم.

- ولكن الله رحيم ولطيف وودود.. أليست هذه من صفاته ومن أسمائه الحسنى ؟ كيف تريدني أن أصدق بأنه سيعذب اناسًا ضعفاء في نار جهنم؟!

- أنتِ بهذا الإنكار تضربين عشرات الآيات القرآنية بعرض الحائط!! فماذا تقولين في قوله تعالى:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)؟

وماذا تقولين في قوله تعالى :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)؟
وماذا تقولين في قوله تعالى :

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)؟

وهناك عشرات الآيات غيرها تتوعد العاصين بالعذاب والعقاب والجحيم!!

ولكن هل يعني هذا بأن ربنا ظالم وغير عادل إن توعد عباده بالعقاب؟ فهل الدول الآن التي تعاقب الخارجين عن القوانين تعتبر ظالمة؟ أم أنها تطبق القانون الدولي؟ فكما أن البشر وضعوا قوانينهم واختاروا حكامًا يطبقون تلك القوانين لتسير أمور بلدانهم على أحسن حال فكذلك الله تعالى يريد من عباده أن يسيروا وفق قوانين إلهية تنظم حياة الإنسان أكثر من القوانين التي يسنها البشر بأنفسهم ولأنها قوانين إلهية عادلة وحكيمة فيجب أن تكون العقوبات عادلة وحكيمة أيضا في حق جميع البشر فهل من العدل والحكمة أن يُعامَل المطيع كما يُعامل العاصي؟ هل من العدل أن ينعم الجميع في النهاية بجنة عرضها السموات والأرض في حين أن منهم من كان كافرًا وعاصيًا وفاسقًا وناشرًا في الأرض الفساد؟!!

- لا طبعًا!

- ورغم هذا فلا يعني أن الإسلام يدعو إلى الاقتتال فيما بيننا بحجة الدين والتزام أوامر الله تعالى! فالإسلام يدعو إلى التعايش السلمي مع جميع الناس بمختلف توجهاتهم ودياناتهم وطوائفهم وأن لا نؤذيهم لا بتصرف ولا بكلام، وأن لا نعلن القتال معهم إلا إن بدأوا هم بذلك.. ألم تسمعي بقصة ذلك الجار اليهودي الذي كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله برمي الأوساخ عليه كلما مر الرسول من أمام منزله!

- نعم سمعتها أكثر من مرة، فعندما مرض ذلك اليهودي ذهب رسول الله لعيادته والدعاء له بالشفاء والهداية.

- أحسنت.. وما كانت النتيجة؟

- اتذكر أن اليهودي قد ندم كثيرًا ودخل الإسلام هو وعائلته!

- نعم فعلا.. ولكن ما السبب؟

- السبب هو الأخلاق العالية لرسول الله طبعًا.

- وهذا ما يجب علينا فعله، فحتى لو لم نحب أفعال العاصين والمذنبين علينا أن نبقى على أخلاقنا العالية معهم فهذا هو ما يحببهم حينها للدين ولمبادئه السامية، وهذا ما يحقق ثقافة (التعايش السلمي) التي كان يدعو لها رسول الله صلى الله عليه وآله.

١١

مضت الأيام والأمور بين ريحانة ومصطفى هادئة جدًا، لا يوجد بينهما غير السلام!

إلا أن أتى ذلك اليوم الذي وصل فيه والده من السفر، فعادت الأمور للتوتر عندما طلب الوالد من ابنه أن يضع حدًا لكل ما يجري، لم يعرف مصطفى ما الذي يفعله فلقد أخبر والدته وكذلك مروة وريحانة بأنه لا يريد لهذا الزواج أن يتم وبأنه سيفسخ الخطوبة ما أن يأتي والده من السفر، أما اليوم فهو يشعر بأنه غير مرغم على فسخ تلك الخطوبة!

قال له والده :

- لماذا هذا الصمت؟ ألم تكن قد قررت أن تفسخ تلك الخطوبة حال رجوعي من السفر؟ ها أنا الآن بقربكم وبكامل قوتي وصحتي ولله الحمد، هيّأ نفسك يوم غد للذهاب إلى الحاكم الشرعي لفسخ العقد بينكما.

لم يحصل الأب على أي جواب من ولده، صاح به بكل عصبية :

- لماذا لا تقل شيئًا؟! إلى متى تبقى صامتًا يا فتى!

اتجهت صفا نحو زوجها وهي تمسك بذراعه وتتوسل إليه أن يهدأ فقد تعود حالته الصحية للتدهور مرة أخرى!

قام مصطفى من مكانه وهو يقول :

- لن أطلقها.. إلا إذا هي أرادت ذلك!

نظر أبو مصطفى لزوجته وهو يقول :

- اتصلي بها الآن وأخبريها بما تحدثنا به ولتعطيك رأيها النهائي.

اتصلت صفا بريحانة وفاجأتها بالقول :

- لقد عاد عمك من سفره وعرف بكل ما حصل بينكما أقصد أنتِ ومصطفى، كان قرار ولدنا بأنه سيفسخ الخطوبة حالما يأتي والده..

صارت ضربات قلب ريحانة تتراكض من الخوف، انها تخشى أن تنطق صفا بقرار مصطفى النهائي، ولكن ألم تكن هي أيضا تتمنى فسخ هذه الخطوبة؟ فما الذي جرى الآن ولماذا هي خائفة من مسألة الانفصال؟!

أكملت صفا :

- أما الآن.. فلقد ترك مصطفى القرار النهائي لكِ أنتِ!

تنفست ريحانة الصعداء وعادت الابتسامة لوجهها وهي تقول :

- دعيني أفكر يا خالتي، أرجوكِ!

- ولكن يا ريحانة أكثر من ثلاثة أشهر وأنتِ معه في نفس الكلية وكلما سألته هل التقيتما؟ جلستما؟ تحدثتما معًا أنت وخطيبتك؟؟ يقول لا! حتى إنكِ يا ابنتي لا تلبسي خاتم الخطوبة!

- لكن يا خالة كيف ألبسه وهو قد قرر فسخ خطوبتنا؟

- نعم صحيح.. لا بأس الآن تستطيعي التفكير ليوم أو يومين.. سننتظرك.

خرجت صفا من غرفتها وبيدها الهاتف.. كان مصطفى ينظر لوالدته بكل ترقب، وفي تلك الأثناء تمنى لو أن الأرض تنشق وتبلعه قبل أن يسمع قرار ريحانة النهائي برفضه!!

قال بكلمات متقطعة :

- ها.. يا ماما؟ ما الذي قالته لكِ؟

إنتبه والده إلى اضطرابه وقلقه، التفت إلى زوجته وهو يقول :

- هيا يا صفا.. اخبرينا!

أجابت صفا وهي تلاحظ أيضًا اضطراب ولدها الشديد:

- طلبت أن نعطيها فرصة ليوم أو يومين!

ضرب الأب كفًا بكف وهو ينظر لمصطفى ويقول :

- عجيب أمركما يا ولدي.. لا أحد منكما يريد أن يعطي القرار النهائي بفسخ الخطوبة، وهذا يعني أنكما لا تريدان الانفصال عن بعضكما أصلًا!

خفض مصطفى رأسه ودخل إلى غرفته وأغلق الباب خلفه ليتجه إلى سجادة صلاته فرشها وسجد سجدة طويلة لله وهو يشكره فيها إذ لم تعطِهم ريحانة قرارها بالانفصال عنه!

في صباح اليوم التالي اتجه نحو قاعتها فوجدها تجلس مع يقين تذاكر في أحد الكتب.. ألقى التحية، ثم استأذنها للحديث على انفراد، قامت ومشت خلفه بحذر، وفي الممر الذي يجمع بين القاعات قال لها بأدب :

- أشكركِ لأنكِ لم تعطنا قرارك بالانفصال.

- لكني قلت لخالتي صفا، انتظروني ليوم أو يومين!

اصفر لون وجهه وهو يسألها :

- هل يعني هذا بأنكِ قد.. قد توافقين على الانفصال؟

بلعت ريقها بصعوبة وهي تقول :

- إحتمال!

- والسبب؟

- خائفة منك ومن دينك!

- وهل ديني يختلف عن دينك؟ أولستِ مسلمة؟

- نعم لكن ما زالت أمور كثيرة خافية عني بخصوص الدين السائد فأنا أشعر بأن لي دين سمح يحب الجميع.

- هل دينكِ يقول أن تحبي الجميع ما عدا خطيبك!

- هل تتذكر علاء؟

بلع ريقه هو هذه المرة بصعوبة وهو يقول :

- نعم أذكره .. ما به؟

- أريد أن ألقي عليه بعض الأسئلة حول الدين، وإن شعرت بالاطمئنان النهائي فسأعطي موافقتي عليك.

- الاطمئنان النهائي؟ هذا يعني أنه هناك الآن بعض الاطمئنان؟

- نعم تقريبا!

نظر إلى يديها وهو يقول :

- متى تقررين ارتداء الخاتم؟!

- عندما يحصل الاطمئنان أيضًا.

- لا بأس الآن.. أدعو الله أن يحصل ذلك الاطمئنان بأسرع وقت!

- بالعكس يا مصطفى!

- ماذا تقصدين؟

- أعتقد أن اليوم واليومين غير كافيين، علاء الآن غير متواجد على الإنترنت لا أعرف لماذا، اليوم طلبت من يقين أن تحدثه لعله يفتح بريده الخاص! وحتى إن فتحه فسأحتاج إلى أسبوع أو أكثر للتحدث حول الأمور التي أريد معرفتها!

- ولكن لماذا قلتِ لأمي يوم أو يومين؟! ماذا سأقول لأبي الآن؟

- أخبره بأي شيء، حاول إقناع أهلك لينتظروني فترة أطول.. رجاءًا!

في هذه الأثناء لمح مصطفى زميله حسن وهو يراقبهما من بعيد، ودَّع خطيبته واتجه نحو حسن قائلا له :

- ما الخبر حسن؟

ارتبك حسن بعض الشيء ثم قال :

- قلت أن ريحانة من معارفك.. صحيح ؟

- ومن أين عرفت اسمها؟

- سألت الشباب في مرحلتها..

- ولماذا سألتهم؟

- لأني.. لأني معجب بها!

كانت ريحانة مازالت تنظر إليهما من بعيد لأنها هي أيضا كانت منتبهة لنظرات حسن طوال الفترة السابقة!

أمسك مصطفى بقميص صديقه وهو يصيح بوجهه :

- إسمعني يا حسن.. هذه آخر مرة أسمعك تلفظ اسمها على لسانك، صدقني سترى مني ما لم تره طوال حياتك!

مدّ حسن يده نحو مصطفى وضربه بقوة في وجهه، دخل مصطفى في شباك وعراك قوي معه وريحانة تنظر إليهما لا تعرف ماذا تفعل!

اتجهت نحو مصطفى وامسكته من ذراعه وهي تبعده عن ذلك الشاب وتتوسل إليه أن يتركه.

ابتعد مصطفى عن حسن وهو يصرح في وجهها :

- منذ يوم غد لن تدخلي الجامعة إلا وخاتم الخطوبة في يدكِ.. هل فهمتي؟

خفضت ريحانة رأسها وقد تطافرت الدموع من عينيها وهي تردد :

- سأفعل ذلك، هيا الآن لنبتعد عنه، الجميع صار ينظر إلينا!

قام حسن من مكانه وهو يتساءل بدهشة :

- ما معنى أن تلبس خاتم خطوبتها؟

قال مصطفى وهو يعيد ترتيب ملابسه :

- إنها خطيبتي.. بل أمرأتي شرعًا!

فغر حسن فاهه وقام عن الأرض بصعوبة وهو يردد :

- اعتذر جدًا، لو أن امرأتك ارتدت خاتم الخطوبة ما حدث كل هذا!

ذهب حسن بعيدًا وترك مصطفى مع خطيبته التي بدت مرتبكة كثيرًا، قال مصطفى بأسى :

- هل هذا يريحكِ الآن؟!

قالت ودموعها تسبق كلماتها :

- ولكن ما ذنبي أنا؟ ألم تكن تنتظر والدك لفسخ خطوبتنا بحجة أنني عنيدة ولا أنفع أن أكون زوجتك؟! كيف لي أن أعلم بأنك ستغير رأيك!

- والآن أنا غيرت رأيي.. فهلا لبستِ الخاتم منذ يوم غد!

مدّت ريحانة يدها نحو حقيبتها وقد غسلت الدموع وجهها قائلة :

- بل سألبسه منذ الآن.. هو في حقيبتي! كل يوم أقرر أن ألبسه ثم أؤجل الموضوع، أما الآن فالأمر لم يعد يحتمل التأجيل.

لبست ريحانة خاتم الخطوبة ومسحت دموعها بيدين مرتجفتين ثم اتجهت إلى قاعتها الدراسية في حين كان مصطفى يراقبها بكل إهتمام.

١٢

في اليوم التالي إنتظر مصطفى ريحانة لكنها لم تكن قد أتت للجامعة أصلا! وعندما سأل عنها يقين قالت له بأنها لا تدري ما الذي حدث وما هو سبب عدم مجيء ريحانة إلى الآن!

استأذن منها مصطفى للذهاب لكن يقين استوقفته وهي تقول :

- أرجو أن تنتظر لتسمع ما عندي يا أخ مصطفى!

- خير إن شاء الله؟

- قد تتوقع أن الأمر الذي أريد أن أتكلم فيه معك هو بخصوص علاقتك بريحانة!

- نعم هذا ما أعتقده، وهل هناك أمرٌ آخر!

- نعم!

- وما هو؟

- أريد التحدث عن علاقتي أنا بذلك الشاب علاء!

تسمر مصطفى في مكانه والدهشة بادية على كل ملامح وجهه، قال بتعجب :

- علاقتكِ بعلاء؟!

- نعم.. أوليس هو ابن خالتي وخطيبي؟

- لكنها خطة يا أختي! وعلاء هو أنا!

- أعرف ذلك يا أخي، لكن إلى متى تبقى هذه اللعبة؟ في الحقيقة هناك شاب في مرحلتي تحدث معي بخصوص إمكانية التقدم لي وطلب يدي لكني لم أستطع التحدث بالأمر!

- ولماذا؟

- لأن أقرب صديقاتي والتي هي ريحانة تعتقد بأني مرتبطة بعلاء إبن خالتي!

- لا بأس.. أخبريها بأن تلك الخطبة لم تحصل وبأنك غير مقتنعة بعلاء جملة وتفصيلا!

- لكن ألن تسألني حينها كيف كنت مقتنعة به في السابق؟ وخاصة أنني وصفته لها على أنه شاب ملتزم ومعتدل فكريًا ليس بمعقد ولا بمنفتح!!

- لا أعرف حقًا، أخبريها بأنك وجدتِ من هو أفضل منه! وأدعو الله أن يكون الشاب الذي تقدم لكِ هو أفضل منه فعلًا؟

- ولكن.. أفضل مِمَّن؟

- مِن علاء..

- أراك كذبت الكذبة وصدقتها يا أخ مصطفى، علاء هو أنت وأنت هو علاء.. أم نسيت؟

- لا لم أنس.. لكني الآن مرتبك كثيرًا، حقيقة فاجأني كلامك! ولا أعرف ما هو المطلوب مني بالضبط؟

- سوف أخبر ريحانة بالأمر!

صاح مصطفى من غير أن يشعر :

- أي أمرٍ بربك يا يقين؟ سوف تنتهي علاقتي بها إلى الأبد إن علمت بأني نفسه ذلك الشاب علاء!

- ولكن هي ستعلم في النهاية.

- لا.. لن تعلم، وحتى لو علمت فسيكون عن طريقي وفي وقت آخر.. عندما تكون قد اقتنعت بالكامل بديننا الإسلامي.

- لا أعرف يا مصطفى، لكني سأخبرها بأن علاقتي بعلاء قد انتهت، وقد تنهي علاقتها معك هي أيضا بصفتك علاء! أما علاقتها معك بصفتك مصطفى فلا أعلم حقًا، أدعو الله أن تسير الأمور حسب ما تخطط له أنت، بل حسب ما تقتضيه مصلحتكما معًا.

صمت مصطفى وهو لا يعرف بماذا يستطيع أن يجيبها، قال أخيرًا :

- هذا من حقكِ، فما هو ذنبكِ لتتأخر خطوبتكِ من أجلنا؟ أدعو الله لكِ ولذلك الشاب بالموفقية والحياة السعيدة.. هنا فاجأتهم ريحانة بقدومها وقد ألقت التحية بامتعاض شديد!

قالت في تهكم :

- أراكما ترتاحان لغيابي عن الجامعة!

أجابتها يقين :

- ولكن ما هذه الترهات؟ مصطفى قلق على غيابك فجاء ليسألني عنكِ لا أكثر ولا أقل!

ابتعدت يقين عنهما وقد ساءها كلام ريحانة كثيرًا، أما مصطفى فلم يكن أقل استياءً منها بسبب كلام خطيبته الجارح.. قال بعصبية :

- ولكن ما بالكِ أنتِ كلما رأيتِني أقف معها تثور ثائرتكِ؟ ألا تثقين بصديقتكِ؟!

- بل أثق بها.. لكنني لا أثق بك! أنت تتحين الفرص للحديث معها.

- ولكنها صديقتك، إذا لم أسألها هي عنكِ فأسأل من يا ترى؟ ومن الذي يعرف أخباركِ أكثر منها!؟

ثم ألستِ تريدين مني أن أعمالك بكامل الحرية؟ فلماذا تعاملينني على عكس ذلك! أم أن الحرية عليكِ حلال وعليّ حرام! من الآن يجب أن تفهمي أن المرأة المتحررة عليها أن تتقبل من زوجها كل شيء!

صدمت ريحانة وهي تسمع المنطق الصريح لمصطفى، بقت متسمرة في مكانها بينما رحل هو صوب قاعته الدراسية..

اتجهت ريحانة هي الأخرى إلى قاعتها وهناك وجدت يقين غارقة بدموعها فتوسلت إليها أن تسامحها وهي تقول :

- صدقيني يا حبيبتي أنا لا أقصد من كلامي ذلك بأني لا أثق بكِ لا سمح الله! لكني كلما رأيت مصطفى يقف معكِ أو مع طالبات مرحلته تثور ثائرتي من غير إرادةً مني.. أقسم بالله على ذلك!

أكملت وقد انهمرت دموعها هي الأخرى :

- أراني أتعلق به يومًا بعد آخر رغم كل محاولاتي في إنهاء علاقتي معه.. لكنني أراها الآن مجرد محاولات فاشلة!

مسحت يقين دموعها ومدت يدها لتمسح دموع صديقتها أيضًا وهي تقول :

- لا بأس، قبلت إعتذاركِ.. لقد جاء خطيبكِ ليسأل عنكِ ويذهب لكني استوقفته لأجل أمر هام.

- وما هو؟

- إنه بخصوص مرتضى!

- مرتضى؟ هل تقصدين ذلك الطالب الذي في مرحلتنا؟

- نعم هو بعينه.. لقد أرسل الي رسائل كثيرة يتوسل فيها أن أوافق على قدومه هو وأهله إلى منزلنا لخطبتي..وأردت أن أسأل مصطفى إن كان يعرفه أم لا، لكنكِ لم تدعيني لأفتح الموضوع معه..

- ولكن.. علاء!

- أظن بأن علينا أن ننسى بعضنا لأن ظروفه تمنعه الآن من التفكير في الزواج.

- ولكن ألم تخبريني بأنه فاتحك بموضوع الزواج؟

- نعم صحيح لكن الرياح جرت بما لا تشتهي السفن! وقد طلب مني أن أنسى أمره!

- لا أعرف حقًا ماذا أقول؟ إنه شاب مثقف جدًا ولديه فكر واعٍ ومهذب.. كنت أتمنى لو بقت علاقتكما معًا!

- هو فعلًا كما وصفتِ لكن مرتضى أيضًا ذو شخصية مهذبة ومثقفة.. كما أنه ملتزم جدا بتعاليم ديننا الحنيف.. وهذا أهم شيء بالنسبة لي!

وهنا تذكرت ريحانة ما دار بينها وبين خطيبها قبل قليل، قالت بتردد :

- هل ترين يا يقين بأن المرأة التي تنشد الحرية يجب أن لا تحاسب زوجها على أي تصرف يصدر منه؟

هزت يقين رأسها وهي تقول :

- نعم أنا أرى ذلك.. فكيف لها أن تمنعه من محاسبتها في حين أنها تحاسبه على تصرفاته!

- ولكن كيف ستكون حياتهما معًا إن كان لديه علاقات مع نساء غيرها؟!

ابتسمت يقين بسخرية قائلة :

- ولكن أليست هي الحرية؟

قالت ريحانة من دون أن تنتبه لنفسها :

- ولكن للحرية حدود!

ضحكت يقين من قلبها وهي تقول :

- وأخيرًا أراكِ تعترفين بأن للحرية حدود!

خجلت ريحانة من كلام صديقتها، صمتت قليلا ثم قالت :

- حسنًا أنا أعترف بأن تفكيري كان خاطئًا بخصوص مفهوم الحرية.. كفى ضحكًا الآن!

توقفت يقين عن الضحك وقد أمسكت بيد صديقتها قائلة :

- ألا ترين معي بأن الإنسان عندما يتصرف بكل حرية دون رادع له أو حدود ستكون الحياة عبارة عن فوضى!

لقد أراد الله تعالى بكل هذه التشريعات والقوانين الإلهية أن يجعل للحرية حدود لتنتظم بها حياة البشر.

- نعم فعلا.. لكن هل تعرفين يا يقين؟

- ماذا يا عزيزتي؟

- ما تزال هناك بعض الأمور مبهمة بالنسبة لي بخصوص الدين الإسلامي.. وأتمنى لو أستطيع أن استمر في مراسلة الأخ علاء للاستفادة منه أكثر.

- وأنا أيضًا أتمنى ذلك صدقيني.

- ولكن خطوبتك من شخص آخر غيره سيقف عائقا أمام تحقيق هذه الأمنية!

- لا بالعكس يا صديقتي.. إن علاء إنسان متفهم وسيعرف بأن مراسلتكِ له هي لأجل الإستفادة من معلوماته وثقافته الدينية.

تنفست ريحانة الصعداء وهي تقول :

- كلامكِ أراحني كثيرًا.. أشكر الله على وجودكِ في حياتي.

١٣

في المنزل فتح مصطفى هاتفه مسجلاً الدخول باسم علاء، فجاءته الرسالة من ريحانة :

- السلام عليكم اخي علاء، لدي سؤال عن مسألة الإكراه في الدين، أوليست هناك آية واضحة وصريحة في الكتاب الكريم عن حرمة إجبار وإكراه الناس على دخول الدين الإسلامي وهو في قوله تعالى (لا إكراه في الدين) فلماذا إذن نرى الرسول والخلفاء من بعده يشنون الحروب على الدول الأخرى لإدخالها ضمن نفوذ الدولة الإسلامية؟ وهذا الأمر إلى الآن موجود وما تنظيمات (القاعدة) و(داعش) إلا دليل على كلامي!

بدأ مصطفى بالكتابة :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، اهلا وسهلا بك أخيتي..

قبل أن أورد لك الأدلة على أن الإسلام هو دين السلام وليس دين الحرب والقتال يجب أن تعلمي بأن مسألة الفتوحات الإسلامية لم تكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله ولا في زمن الإمام علي عليه السلام بل كانت في زمن الخلفاء الثلاثة الذين استلموا زمام الحكم بعد رسول الله!

ولقد شجع هذا المفكرين الغربيين ومن ورائهم الإعلام الصهيوني ولسنواتٍ طويلة من نشر مقولة فارغة مفادها : إن الإسلام دين السيف والقتال!

وسأورد لك هنا الأدلة الدامغة من القرآن وسيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) والتي تُثبت لنا أن الإسلام يدعو الى السلام لا غير..

لنبدأ من مسألة (هل الإسلام دين السلام أم دين الحرب والقتال) وكما أوردها السيد الدكتور التيجاني في كتابه (وأكثرهم للحق كارهون) حيث يقول :

هل أن الحرب هي الأصل في الإسلام وأن السلام هو الاستثناء ؟ أم أن السلام هو الأصل في الإسلام وأن الحرب هي الاستثناء ؟

يجيبنا عن هذا التساؤل قول الله عز وجل في قرآنهِ الحكيم (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم) سورة يونس - ٢٥ وكذلك قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلمِ كافة) سورة البقرة - ٢٠٨

فها هو القرآن يصدح بالحقيقة الناصعة بأن الله سبحانه وتعالى يدعو من خلال هذا الدين الى السلام لا غيره ..

كما أنه سبحانه عندما أرسل نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) إلى عبادهِ أراد لهم الهناء والرحمة لا العذاب والنقمة وذلك قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين) سورة الأنبياء - ١٠٧

إذاً ماذا نُفسر الآيات التي نزلت تُحرض الرسول والمسلمين على القتال ؟

وهنا يجيبنا القرآن أيضاً في قوله تعالى (قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) سورة البقرة - ١٩٣

ومن هذه الآية نستنتج أمرين في غاية الأهمية هما :

١- لا يكون هناك قتال إلا إذا كانت هناك فتنة يجب إخمادها .

٢- لا عدوان إلا على الظالمين .

أما إذا لم تصدر الفتنة من غير المسلمين ولم يكونوا ظالمين في تعاملهم مع الإسلام فإن الدين في هذه الحالة ينهى المسلمين من التعرض لهم بل ويأمرهم أن يبروهم ويُقسطوا إليهم!

قال تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) سورة الممتحنة - ٨

وقد نهى رسول الله المسلمين عن إيذاء أهل الذمة من اليهود والنصارى الذين لا يُظهرون العداوة للإسلام حتى اعتبر إيذائهم إيذاءاً لَهُ حين قال (من آذى ذمياً فقد آذاني) !

إذاً كل الحروب التي خاضها رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) لم تكن لإجبار الكفار والمشركين وأهل الديانات الأخرى على دخول الإسلام حيث أن الثابت في الإسلام أن (لا إكراه في الدين) ولكن كانت لقطع دابر الظلم وقمع الفتنة بل واستئصالها عن طريق استئصال من يدعو لها من المنافقين والظالمين .

وبهذا نعرف ان (السلام) هو الأصل في ديننا وأن الحرب هي الاستثناء على عكس ما يحاول أعداء الدين إظهاره للعالم بأن الأصل في الإسلام هو الحرب والدماء!!

وما أروع ما أثبته الله لنفسهِ ولدينهِ من دعوته للسلام حين جعل هذه اللفظة بالذات تحية المؤمنين في هذه الحياة الدنيا بل وفي تلك الدار الآخرة حينما قال (وتحيتهم فيها سلام) سورة يونس - الآية ١٠

وإليك هذه الهمسة الأخيرة :

قد يلجأ الإسلام للحرب عندما تكون الحرب هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق (السلام) .

كتبت ريحانة :

- أشكر لطفك أخي علاء في إيضاح كل هذا وحقيقة فلقد كنت أجهل هذه الأدلة القرآنية التي تؤكد لنا فعلا أن أصل الدين هو السلام وليس الحرب والقتال! فهل ذكر هذا الكتاب شيئا عن أدلة بطلان الفتوحات الإسلامية؟

جاءها الرد :

- نعم بالتأكيد!

- وما هي إن أمكن؟

- في البدء يجب أن تعلمي أن الفتوحات الاسلامية التي يدعي البعض اليوم بأنها هي التي أسست لسبي النساء والغزو والسلب وإجبار الناس على اعتناق الإسلام ووو ...

هذه الفتوحات ما هي إلا عبارة عن خطة سياسية ماكرة لم يؤسس لها رسول الله اصلا وإنما ابتدعوها بعد وفاته لغرض مصالحهم الشخصية ليس إلا .. هذا الكتاب يؤكد تماما بالأدلة من كتاب الله لا غيره بأنه لا يوجد شيء في الاسلام الأصيل اسمه (فتوحات اسلامية) ... !!!

لأنها تؤسس لفكر الإكراه في الدين بينما يصدح القرآن عاليا (لا إكراه في الدين) .

مع الأسف الفتوحات الزائفة كانت البداية وداعش كانت الختام!

لقد حذر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بعدم إكراه الناس وإجبارهم على الإيمان بل أمره بترك مطلق الحرية لهم أن يختاروا ما يشاؤون ، قال تعالى :

" لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي "

البقرة - ٢٥٦

وقال عز وجل " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " الكهف - ٢٩

وكما جاء في بداية الدعوة الاسلامية " لكم دينكم ولي دين " الكافرون - ٦

وقال تعالى " فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر " الغاشية ٢١-٢٢

وآية " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " يونس - ٩٩

وقوله تعالى : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين " النحل - ١٢٥

وهذه الآيات تنفي تماما الدعوة لدين الله بالقوة أو العنف والإرهاب .

وأخيرا قوله تعالى :

" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " الأنبياء - ١٠٧

فكيف يكون رحمة لكل الناس في العالم (العالمين) وهو لم يعمر في الرسالة إلا ثلاث وعشرين سنة ؟

ولم يخرج من الجزيرة العربية ولم يعرفه سكان الأرض إلا قليلا بل أن أغلب الناس يعادونه ويعادون الدين الذي جاء به ؟!

وقول الله سبحانه بأن محمدًا هو رحمة للعالمين فهو إذًا ليس محاربا لهم ولا منتقمًا منهم ، بل هو رحمة لهم جميعا ، وهذا يعني أيضا أن دعوته العالمية ستبقى (رحمة) إلى قيام الساعة .

والذي يجب أن نعرفه الآن انه " عليه وعلى آله الصلاة والسلام " لم يفتح أي بلد أو أي دولة سوى فتح واحد ذكره الله في سورة الفتح وهو فتح مكة مسقط رأسه ، وفيه بيت الله الحرام ، وقد سجل التاريخ بأن ذلك الفتح كان سلميًا الى أبعد الحدود فلم تهرق فيه قطرة واحدة من دم المشركين الذين هجموا عليه في عقر داره وقتلوا أصحابه ، بل سجل التأريخ له أسمى المواقف وأنبل الخلق عندما عفى عنهم جميعا وقال : إذهبوا فأنتم الطلقاء .

(اين هذا الموقف الانساني الرائع مما يفعله الفاتحون اليوم ؟ فهم بدعوى الفتوحات الاسلامية يقتلون ويمثلون بالجثث ، ينهبون ويسلبون ، يذبحون الرجال ويسبون النساء ويرهبون الأطفال ويتاجرون بهم وبأعضائهم .. كل هذا بحجة الفتح الاسلامي) !!!!!

وأما بخصوص فتح المدن والدول البعيدة فلم يأخذ رسول الله جيشًا لفرض دينه ودعوته بل بعث إلى حكامها وملوكها رسائل في السنة السادسة أو السابعة للهجرة إلى المقوقس عظيم القبط في مصر ، وإلى هرقل عظيم الروم ، وإلى كسرى عظيم الفرس ، وإلى

النجاشي عظيم الحبشة ، كما بعث إلى ملك اليمن وملك البحرين وملك الغساسنة ، فالرسائل متعددة والمضمون واحد .

وقد كتبها رسول الله بخط يده وختمها بخاتمه وبعض هذه الرسائل بقي إلى اليوم في متحف (TopKapi) في اسطنبول بتركيا وقد اطلعت عليها شخصيا - والكلام للتيجاني - وإليك أيها القارىء العزيز نص الرسالة ومضمونها :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى ..

أما بعد فإني أدعوك بدعوة الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط جميعا .

(قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) آل عمران - ٤٦

فهذه الرسائل بمضامينها والتي بعث بها رسول الله الى كل الملوك الذين يحكمون العالم وهي كما نرى ليس فيها تهديد من قريب أو من بعيد ، وقد حمل رسول الله الحكام مسؤولية شعوبهم ، لأن الناس على دين ملوكهم فإذا اهتدى الملك وأسلم فإن شعبه يتبعه بدون شك ، ولذلك يقول الرسول في رسالته : أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وقوله " أسلم تسلم " يعني اذا اعتنقت الاسلام تسلم يوم القيامة من عذاب الله " ويؤتك أجرك مرتين " يعني يعطيك الله أجرا لهداية نفسك وأجرا ثانيا لهداية شعبك ، وهكذا هو دين الإسلام .

نعم فلقد لبى رسول الله نداء ربه بهذه الرسائل حين قال في محكم كتابه (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) يونس – ١٠٨

١٤

في صباح يوم حزين نهض مصطفى على صوت صياح والدته وهي تناديه بأعلى صوتها، ركض نحو غرفة والديه فإذا به يرى أمه وهي تهز بكلتا ذراعيها جسد زوجها والذي بدى لون وجهه أزرقًا كوجوه الموتى!

اتجه مصطفى نحوه ووضع ابهامه على رسغ والده وفجأة امتقع وجهه وصار يردد : أبي أرجوك لا تمت!

كانت الصدمة شديدة على الجميع فمن المفروض أن أبا مصطفى قد تحسن بعد سفره للهند ولكن القدر قد قال كلمته الأخيرة .

في الطريق إلى المشفى اتصلت صفا بأهلها كما اتصل مصطفى بأعمامه ليحضروا جميعًا إلى المشفى قبل نقل الجثة إلى المقبرة، كما اتصلت صفا بصديقة عمرها مروة وقد اخبرتها بالنبأ بقلب محترق وصوت يتقطع ألما، وما كان من مروة إلا أن هرعت مع ابنتها إلى المشفى وهناك صدم ريحانة منظر خطيبها وهو يقف لوحده واضعًا كفه على وجهه ليخفي دموع الألم والحسرة، لقد تمنى أن يتم الزواج بحضور والده، كما أنها كانت أمنية أبا مصطفى أن يرى مراسم زفاف ولده الوحيد!

اتجهت بخطوات مرتبكة نحو مصطفى، مدت يدها نحوه لتضعها على كتفه بهدوء وهي تقول :

- ساعدك الله يا مصطفى..

أبعد كفه عن وجهه وهو ينظر إليها بعينين محمرتين من البكاء قال وهو بمسح دموعه :

- أشكركِ على الحضور.. هل تعلمين بأنه مات وهو في غصة وحزن بسبب تصرفاتنا الصبيانية؟ هل تعلمين بأن أمنيته الوحيدة كانت أن يراني عريسًا، وأن يرى حفيده الأول؟!

طأطأت ريحانة رأسها وهي تشعر بالندم، لأنها لم تستطع أن تحقق أمنية ذلك الرجل المريض.. قالت وقد سقطت دموعها هي أيضا :

- لا! ليس لك أي دخل في ألمه وحزنه.. أنا هي الملامة الأولى والأخيرة في كل هذا التأخير، أدعو الله أن يغفر لي!

في هذه اللحظات سمعا أصوات صراخ وبكاء فعرف مصطفى أن أقاربه قد بدأوا يتوافدون على المشفى فما كان منه إلا أن ذهب لاستقبالهم ثم أكمل مراسم استلام جثمان والده ليتجه به إلى المغتسل ثم إلى المقبرة، وقبل أن يصعد إلى السيارة أشار إلى والدته أن تأخذ ريحانة وصفا إلى المنزل معها لتتهيأ هناك لاستقبال النساء المعزيات لكنها رفضت وبشدة وأصرت على مرافقتهم إلى المقبرة، لم يستطع مصطفى ثنيها عن رأيها وخاصة بعد أن رأى أن مروة وريحانة مصرتان أيضا على الذهاب معهم!

في المقبرة كان كل شيء مختلف! منذ زمن بعيد وريحانة لم تطأ قدماها هذه الأرض الجرداء الواسعة، كانت تنظر إلى الرجال وهم ينزلون والد خطيبها إلى حفرته حيث مقره الأخير!

لم تتوقف دموعها لحظة واحدة فلقد شعرت بحقارة هذه الدنيا وصغر حجمها! صارت تحدث نفسها وسط أصوات البكاء والعويل التي كانت تأتي من هنا وهناك:

- هل هذه هي نهاية الإنسان؟ حفرة مظلمة يدسوه فيها ثم يرحلوا؟! هل لأجل هذه الدنيا الفانية ما زلت أعاند وأكابر بحثًا عن الحرية؟! وكم من السنوات ممكن أن أعيش متحررة؟ وما هي النهاية!؟ ليس إلا هذا القبر الذي سيقيدني عن الحركة أو النهوض! سيتركني الجميع ويرحلوا كما سيحصل الآن مع العم ابو مصطفى تمامًا! ماذا لو كان هناك مصير آخر ينتظرنا؟ ماذا لو كان هناك جنة ونار فعلًا؟! ماذا لو جاء بعد قليل الملكان إلى هنا ودخلا هذا القبر ليسألا صاحبه عما عمله في حياته؟ تذكرت ما قرأته في أحد المواقع : المؤمنون لن يخسروا شيئا إن لم يكن هناك عالم آخر ما بعد الموت، الملحدون والمعاندون هم من سيخسرون خسرانًا عظيمًا إن كان ذلك العالم موجودًا فعلًا!

لماذا لم تفكر بهذه النهاية المحتومة والتي كتبها الله على جميع البشر دون استثناء!؟ بل كتبها على جميع الكائنات على وجه الأرض!

وهنا سمعت صوت ذلك الشاب الخطيب الذي حضر معهم وهو يردد بصوت حزين (وكل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).

اكمل الجميع قراءة سورة الفاتحة وقدموا خالص تعازيهم لمصطفى ووالدته، وبدأوا بترك المقبرة واحدًا تلو الآخر ولم يبق إلا والدته مع مروة وريحانة وأحد أعمامه!

قال وهو يوجه الكلام لعمه :

- أرجوك يا عماه.. خذ والدتي وخطيبتي وأمها إلى منزلنا.. أريد أن أبقى لوحدي مع أبي!

أشار العم إلى النسوة الثلاثة بالصعود إلى السيارة، وما كان من صفا ومروة إلا أن اتجهتا صوب سيارته للصعود أما ريحانة فلقد اتجهت صوب مصطفى وقد همست في أذنه : اتمنى البقاء معك!

التفت إليها مصطفى مندهشًا دون أن يتكلم بأي كلمة، فهل فعلا تريد البقاء معه؟ هل ستبقى معه هنا لتواسيه أم ستبقى معه إلى الأبد!؟

تذكر أمنية والده وعادت دموعه للانهمار.. فغطى وجهه بكفيه وصار يجهش بالبكاء!

التفتت ريحانة صوب السيارة وأشارت إليهم بالرحيل، نزلت مروة متجهة نحو ابنتها، سألتها بدهشة :

- هل فعلا تنوين البقاء هنا؟!

أجابتها بثقة :

- نعم يا ماما.. أنا بحاجة إلى البقاء هنا، لا تقلقي علي اذهبي مع خالتي صفا وساعديها في تهيأة المنزل لاستقبال المعزين، أما أنا فسأبقى بجوار مصطفى.

تفاجأت مروة وكذلك صفا من تصرف ريحانة وما كان منهما إلا أن انصاعا لرأيها وتركاها مع خطيبها في تلك المقبرة الموحشة!

جلست بعيدة عنه بعض الشيء وهي تراقبه يجلس بالقرب من ذلك القبر الحديث وهو يبلل تراب القبر بدموعه المنهمرة أمطارًا، أما هي فلقد أخرجت مصحفًا صغيرًا من حقيبتها كانت قد وضعته قبل أن تخرج من المنزل فهي منذ زمن بعيد لم تقرأ فيه وحان الوقت لإعادة العلاقة مع هذا الكتاب!

فتحته وبدأت تقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين....)

إنتبه مصطفى لصوتها وهي تقرأ القرآن الكريم، تفاجأ ورغم كل ما يعتلج صدره من أسى والم إلا أن نقطة بيضاء ناصعة أضاءت في ذلك القلب الحزين وجعلته يشعر بشيء من السعادة!

قام من مكانه واتجه نحوها وهو يقول :

- هل يمكنني أخذ المصحف الشريف؟!

كانت قد أنهت لتوها سورة الفاتحة فقبلت المصحف وأعطته لمصطفى الذي أخذه وذهب ليعود فيجلس بالقرب من قبر والده وصار يقرأ :

(يس، والقرآن الحكيم) .... كان يرتل القرآن ترتيلًا جميلًا، صارت ريحانة تنصت لصوته والدموع تسابق كلماته، أكمل قراءة سور (يس والصافات والمؤمنون ومحمد) ثم قام من مكانه فاقتربت منه وهي تقول باهتمام :

- انفض التراب عن ملابسك..

قال وهو يسلمها المصحف الشريف :

- ولماذا أنفضه؟ سيكون مقري الأخير التراب لا غيره!

وضعت ريحانة كفيها على وجهها وأجهشت بالبكاء، سحبها بلطف من ذراعها وجلس معها بعيدًا عن قبر والده لكن عيونه كانت متجهة نحو القبر وكأنه يريد أن يشبع ناظريه منه قبل أن يتركه ويرحل.. صار يردد الشعر المنسوب للإمام علي عليه السلام بصوت حزين :

النفسُ تبكي على الدنيا وقد علمت

أنَّ السلامة فيها ترك ما فيــها

لا دارٌ للمرءِ بعد الموت يسكُنها

إلا التي كانَ قبـل الموتِ يبنيها

فإن بناها بخير طاب مسكنُه

وإن بناها بشر خـــــاب بانيـــها

أموالنا لذوي الميراث نجمعُها

ودورنا لخراب الدهــر نبنـيــها!

أين الملوك التي كانت مسلطنةً؟!

حتى سقاها بكأس الموت ساقيــها

فكم مدائنٍ في الآفاق قد بنيت

أمست خرابا وأفنى الموتُ أهليـــها

لا تركِنَنَّ إلى الدنيا وما فيها

فالموت لا شـــك يُفنينا ويُفنيــها

لكل نفس وإن كانت على وجلٍ

من المَنِيَّةِ آمـــــالٌ تقويــــها

المرء يبسطها والدهر يقبضُها

والنفس تنشرها والموت يطويها!

١٥

في تلك الأيام اندلعت ثورة تشرين (اكتوبر) عام ٢٠١٩ والتي قادها شباب العراق في الحراك الشعبي ضد السلطات الحاكمة ،

كانت ثورة سلمية لتحقيق مطالب الشعب والتي أهمها تعديل الدستور وقانون الانتخابات واستقالة الحكومة وحل مجالس المحافظات وإعطاء حقوق الشعب كاملة.

كان يوم ٢٥ من شهر تشرين الاول عندما إتخذ الشباب في العاصمة بغداد من ساحة التحرير مقرًا لاعتصامهم ، أما مدينة كربلاء والتي كان مصطفى أحد سكانها فلقد اعتصم شبابها في ساحة التربية ونصبوا خيمهم هناك.

كانت صفا قلقة جدا على حياة ولدها فهي لا تعلم ما ستحمله لها الساعات القادمة من اخبار!!

حرص مصطفى أن يتواجد هناك منذ الصباح ،كان الجو شبه غائم!

خرجت صفا إلى الحديقة ورفعت رأسها نحو السماء فإذا بغيمة سوداء قادمة من بعيد ، انقبض قلبها! هل هذه علامة الايام السوداء القادمة؟!

ظلت واقفة تحت السماء وهي ترفع يديها وتدعو لبلدها الجريح ولشعبها المظلوم ولولدها بالسلامة.. فإذا بقطرات المطر تبلل وجهها!!

ها هي السماء تفتح أبوابها وتستقبل دعوات الأمهات، وها هي الأمطار تسقط علامةً لقدوم الخير بإذن الله ..

الساعة الآن الثانية والنصف ظهرًا ، لم يبق إلا نصف ساعة على انطلاق التظاهرة التي ستجوب شوارع كربلاء ، الغيمة السوداء الكبيرة ما زالت تغطي سماء المدينة والشباب بين معتصر القلب وبين قلق ومتوتر!

الجو الكئيب الذي تضفيه هذه الغيمة يجعل الجميع حزين رغم سقوط المطر!!

الجميع ينظر أما إلى ساعة يده أو ساعة هاتفه..إنها الثالثة! وفجأة تنقشع الغيمة عن السماء ويظهر شعاع الشمس مع بقاء قطرات المطر الخفيف والتي صحبت معها قوس المطر بألوانه السبعة الزاهية!

كان لإنقشاع الغيمة السوداء وظهور قوس المطر وقعه الخاص في نفوس الثائرين ..إنها ساعة الصفر!

شعروا من خلال كل هذه العلامات بأن الله معهم وهو يسندهم ويبارك لهم ثورتهم هذه وبأن غيمة الظلم والفساد التي سيطرت على بلادهم سيتبعها ظهور شعاع النصر والصلاح بفضل ثورتهم الشبابية هذه.

انطلقت الأصوات الصادحة بحب العراق وهي تنادي بصوت واحد : لبيك يا عراق.

استمرت المظاهرات إلى وقت متأخر من الليل..

مضت تلك الليلة (الليلة الأولى) بسلام لكن مصطفى لم ينم فيها حاله كحال باقي الشباب بسبب البرد ، إذ لم يكن أحد يتوقع أن الجو سيتغير فجأة!!

كان الجو حينها خريفًا والشتاء على الأبواب لكن درجة الحرارة في النهار ما تزال مرتفعة أما في الليل فمن الصعوبة أن ينام الشخص في الشارع أو الخيام دون غطاء!!

لم يكن الشباب يعلمون بكل هذا ،فهم لم يجربوا النوم خارج منازلهم في هكذا وقت ،حاولت بعض المواكب الحسينية أن تدخل الأغطية الى ساحة الاعتصام لكن القوات الامنية منعهتم من ذلك وسمحت للطعام فقط بالدخول!

١٦

منذ الصباح عادت المواكب إلى الساحة لتوزيع طعام الإفطار على المتظاهرين إذ كانت قدور (الهريسة) وكذلك الخبز الحار تنزل إلى الساحة من سيارات المواكب مما لفت انتباه بعض الشباب الذين كانوا يعتبرون أهل المواكب الحسينية أناسًا لا يحملون في قلوبهم غير الرياء والعنصرية!!

اجتمع الشباب حول موائد الإفطار وقام بعضهم وكان مصطفى منهم بتوزيع الطعام على قوات الأمن الذين استقبلوا هذه المبادرة برحابة صدر وصاروا يتمازحون معهم بكل ود وعفوية..

قبل الساعة الثالثة ظهرًا قرر بعض الشباب أن يذهبوا إلى منازلهم لإحضار الفراش والأغطية، وما أن دخل مصطفى إلى منزله حتى استقبلته والدته بدموع الشوق واللهفة فهو للمرة الأولى يبيت خارج المنزل!

قالت له وهي تسمع كلماته الحماسية عن ثورتهم السلمية هذه :

- هل يمكن أن تنصبوا لنا خيمة نحن النساء لنكون معكم هناك؟

- ولكن يا أماه.. قد لا تبقى الأوضاع كما هي عليه ليلة أمس، إننا نخشى من المخربين أتباع القوى المعادية لهذه الثورة.

أكمل وهو يلاحظ توتر والدته :

- صدقيني حتى القوات الأمنية متوجسة خيفة من الايام القادمة!

قالت وهي تشد على يدي ولدها :

- ولكن ألم يأخذ الحسين عليه السلام النساء والأطفال معه في حربه ضد يزيد؟ هل نحن أفضل من نساء العترة الطاهرة؟

- حسنٌ يا ماما.. سأتكلم مع الشباب هناك وسننصب لكم خيمة خاصة بكم عن قريب.

- عن قريب؟

- نعم!

- لا.. بل سأذهب أنا وأختك معك اليوم وعندما يرون قدومنا سينصبون لنا خيمة مباشرة.

لم يصمد مصطفى أمام إصرار والدته والحاحها وكذلك إصرار اخته ولهفتها للحاق بهم ومساعدتهم في كل ما يحتاجونه فأخذهما معه إلى ساحة الاعتصام منذ الليلة الثانية للثورة.

****

نصب الشباب خيمة للنساء وكتبوا عليها خيمة النساء ولشد ما اذهلهم توافد نساء من المنطقة إليهم وكن متوسطات وكبيرات في العمر وقد أحضرن معهن أواني الطبخ والشاي والخبز ليقمن بتقديم الطعام الطازج والخبز الحار للمعتصمين!

مضت تلك الليلة بأمان وسلام أيضا بعد يوم متعب من التظاهرات والهتافات الحماسية الغاضبة.

استيقظ الشباب وخرجوا من خيمهم ليجدوا أنواع التبرعات لهم من فراش وأغطية وطعام وقناني الماء وعلب العصير، كل هذا من أهالي كربلاء!

زاد الحماس لدى الشباب عندما وجدوا أن الجميع يساندهم ويدعو لهم بالنصر، عادت المظاهرات للانطلاق مجددا عند الساعة الثالثة كما في كل يوم حيث تسير المظاهرات من فلكة التربية (ساحة الاعتصام) إلى المحافظة ومجلسها للمطالبة هناك بأهم حقوق الإنسان ثم العودة إلى فلكة التربية حيث خيام المعتصمين.

في الليل وبعد تناولهم طعام العشاء الذي أعدته النسوة استلقى الجميع لكسب بعض الراحة، هنا اتصلت ريحانة وكان صوتها قريب للبكاء!

سألها مصطفى بتعجب :

- خير ان شاء الله؟

- هل فعلا أنت مع المعتصمين؟!

-نعم.. ولماذا؟

أغلقت ريحانة الهاتف مباشرة! تفاجأ مصطفى من ردة فعلها فأعاد الاتصال :

- ولكن ما بكِ غاليتي؟

- لماذا أخفيت عني هذا الأمر المهم؟

- صدقيني لا أريد أن أجعلكِ في قلق، فأنا أعرف بأن عاطفتكِ أقوى من أي شيء!

- ولكن ماذا تقول يا مصطفى؟ لو قلت لي لكنت التحقت بك هناك مع النساء.

دهش من كلامها قائلا :

- ومن قال لكِ بأن النساء معنا؟

- اتصلت قبل قليل بتقوى وهي أخبرتني بكل شيء.

- حسنٌ.. ولكن أنا لا أقبل بوجودكِ هنا، الوضع خطر بعض الشيء.

قالت بأسى :

- ارجوك لا تقل هذا.. فأنا أخشى عليك منهم!

- لا تقلقي.. القوات الأمنية معنا لكن المندسين قد يستغلون الفرص للايقاع بيننا وبين تلك القوات.

- ارجوك يا مصطفى دعني آتي عندكم.

- ولكن خالتي مروة ما ذنبها لتبقى وحدها؟

- سوف تأتي معي، خاصة إن عرفت بأن خالتي صفا هناك أيضا.

- حسنٌ.. دعيني أفكر الليلة وقد آتي غدًا لأخذكما.

ودّعت ريحانة خطيبها وهي تدعو الله أن يحفظه من كل مكروه.

١٧

أغمض مصطفى عينيه وهو يحاول أن ينام لكن ضجة وأصوات قوية في الخارج صارت تقترب منهم!

خرج من خيمته فرأى مركبة تابعة للقوات الأمنية تقف قريبة منهم وإذا بمجموعة من الشباب يتجهون نحوها ويضرمون فيها النيران! كل ذلك حدث في دقائق! فما كان من تلك القوات إلا أن اتجهت نحو خيام المعتصمين وصارت ترمي فوق رؤوسهم الرصاص الحي!

ركض مصطفى نحو خيمة النساء بعد أن سمع صراخهن وطلب منهن الخروج واللجوء إلى الأفرع القريبة من الساحة، وكذلك فعل باقي الشباب الى أن هدأت الأوضاع قليلا فعادوا إلى الخيام وهم لا يعرفوا من قام بحرق تلك المركبة!

قالت صفا وهي تهم بدخول الخيمة :

- هل هذا ما كنت تخشاه يا ولدي؟

قال مصطفى بأسى :

- نعم يا أماه.. ألم أقل لك بأن المخربين لم يتركوا المظاهرات تتمتع بسلميتها!

- وهل المخربين بين المتظاهرين أم بين القوات الأمنية؟

- الله أعلم..!

قضت النسوة تلك الليلة بين الصلاة والدعاء للشباب إلى أن حان الفجر.

كان الشباب في حالة من التوجس والقلق فهل ستتخذ الحكومة من حرق تلك المركبة حجة لفض الاعتصامات بالقوة!

في تمام الساعة الثامنة صباحًا تفاجأ المعتصمون بالأعلام العراقية والحشود الغفيرة من طلاب المدارس الثانوية وهي تتجه صوب ساحة الاعتصام والجميع يهتف بصوت واحد : لبيك يا عراق!

دمعت عيون المعتصمين بل وبكى الكثير منهم إذ لم يستطيعوا السيطرة على مشاعرهم الجياشة التي صارت تزداد مع كل هذه الحشود القادمة نحوهم والمساندة لهم!

لم تكن الأعداد بالأمس هكذا لكنها تزداد اليوم بسبب ما حدث ليلة أمس من إطلاق النار على المتظاهرين السلميين، وكأن الطلاب يقولون للحكومة نحن من سيقود هذه المظاهرات وليحدث ما يحدث!

كانت ثورة بيضاء بتلك القمصان البيضاء والأوراق البيضاء التي يحملونها ولم يكتبوا عليها غير كلمتين : نريد وطن!

استمرت المظاهرات منذ الصباح حتى وقت متأخر من الليل، وشعر المعتصمون بالتعب الشديد أكثر من أي يوم مضى!

في الأيام الماضية كانت المظاهرات تبدأ تمام الساعة الثالثة ظهرًا أما اليوم فلقد بدأت منذ الصباح بعد أن أعلنت جميع المدارس والجامعات عصيانها المدني لتلتحق بالمعتصمين!

نسى مصطفى ما كان قد وعد به ريحانة من القدوم إليها وأخذها هي ووالدتها إلى حيث هو والشباب في ساحة الاعتصام، رنّ الهاتف وكان اسمها!

- هلو ريحانتي!

-أنت إنسان كاذب.. لو كنتُ ريحانتك فعلًا لما ارتحت هكذا لابتعادنا عن بعض.

- ماذا؟ لا.. لا! ليس الأمر كما تصفين صدقيني، سنلتقي غدًا أعدكِ عزيزتي، وسأخبرك بكل ما جرى اليوم!

- بل ستخبرني الآن!

- حسنٌ.. كما يحلو لكِ.

بدأ مصطفى بسرد كل أحداث الليلة الماضية بعد اتصالها مباشرة ثم ما جرى اليوم من حضور أعداد غفيرة من طلاب المدارس الثانوية والجامعات الكربلائية وما كان عليه هو وباقي الشباب المعتصمين من أعمال كالترحيب بهم وتقديم الماء والطعام وإعداد أماكن الاستراحة لكل هذه الأعداد!

تلهفت ريحانة أكثر وهي تستمع لحديثه، قالت وهي تقسم عليه بروح والده :

- أقسم عليك بروح عمي الغالي أن تأخذني إلى حيث أنت أرجوك ، وأعدك بأني لن أضايقك أبدًا بل سأبقى بجانب خالتي وتقوى وأساعدهما في أي شيء يحتاجانه.. أرجوك يا مصطفى!

أنهى مصطفى حديثه معها بأن وعدها بكل ما أرادت ثم أغلق الهاتف..

قام مصطفى ليتمشى قليلًا باتجاه منزل المحافظ والذي كان مقابلًا لساحة المعتصمين حيث أن اتصال خطيبته قد اطار النوم من عينه، وهناك سمع نداءًا يأتي لقائد الفرقة العسكرية من شخص أعلى منه بأن يقوموا بتفرقة المعتصمين حالًا وبأي طريقة فالخطر قادم نحوهم عن طريق قوات مجهولة!

حاول مصطفى أن يتجه نحو أصحابه لإخبارهم لكنه لم يستطع بسبب قنابل الغاز المسيل الدموع والتي صارت تُرمى عليهم من كل جانب!

هل هذه هي الاستجابة لأمر ذلك القائد الأعلى؟ هل هذه هي الوسيلة التي يفرقون بها المعتصمين خوفًا عليهم من القوات المجهولة! وهل هناك قوات مجهولة فعلا أم أنها مجرد خطة قذرة لإنهاء الاعتصام؟! من المؤلم انك تعيش الأحداث أولًا بأول ولا تعرف ماذا يحصل بالضبط في حين انك في وسط الحدث!

صار الشباب يسقطون أرضا من شدة الألم والاختناق! لم يكن غازًا مسيلًا للدموع كما يدعون بل كان غازًا ضاربًا لأعصاب الجسم!

بدأوا بسماع صوت إطلاق النار من بعيد ثم صار يقترب منهم فبدأت القوات - التي كانت بحماية المعتصمين والتي أطلقت عليهم الغاز قبل قليل - بالرمي الحي باتجاه تلك القوات المسلحة وكان المعتصمين بينهما بين مشلول الأعصاب وبين مختنق وبين من يركض ولا يعرف إلى أين؟

دخل مصطفى خيمة النساء بعد أن استدعته والدته لما اصابهن هن أيضا من حالات اختناق، فأخذهن بعيدًا عن مكان الغاز، وقد صاروا يركضون لمسافات طويلة حتى وجدوا سيارات الإسعاف.

احترقت سماء كربلاء في تلك الليلة - الليلة الثالثة للاعتصام - ولا أحد يعرف من أين جاءت تلك القوة المسلحة والتي صارت تطلق النار بشكل كثيف!

سقط في تلك الليلة شهيد واحد مع عشرات الجرحى!!

خرج مصطفى صباحًا مع المشيعين لتشييع ذلك الشهيد وسط هتافات بإقالة الحكومة، ثم توجه إلى منزل ريحانة ليضعها في الصورة وكان يظن بأنها سترفض الذهاب معه لكنه تفاجأ بازدياد لهفتها إلى الالتحاق بالمعتصمين!

١٨

التحقت ريحانة ووالدتها مع بقية النسوة في ساحة الاعتصام بعد أن إزداد عدد النساء المعتصمات مع أولادهن وإخوانهن في ساحة الاعتصام، مما أدى إلى تهدئة وقتية للأمور.

فرشت ريحانة فراشها قريبًا على باب الخيمة لتستمع إلى مصطفى وبعض الشباب الذين كانوا يجلسون بالقرب من خيمة النساء لحمايتهن.

كانت تستمع بلهفة :

مصطفى : الأيام تمضي والحكومة لا تنوي الاستقالة!

أحمد : سترضخ لنا في النهاية.. صدقني.

محمد : النقابات أعلنت إضرابها المفتوح حتى نيل المطالب.. وكوادر العتبات المقدسة نزلت معنا إلى ساحات الاعتصام والتظاهر.. ماذا نريد أكثر من ذلك؟

علي : المرجعية الدينية تصف المتظاهرين بالأحبة، وتطلب من القوات الأمنية أن لا يتعرضوا لنا نهائيا ورغم ذلك ما زال هناك عشرات الشهداء يوميًا وفي كل مناطق العراق!

حسين : الحكومة التي تدعي التدين لم تستمع لكلام المرجعية!

أحمد : لو كانت هذه الحكومة دينية فعلًا لأخذت بكلام المرجعية الدينية في النجف الأشرف ولقامت بتلبية طلبات المتظاهرين بأسرع وقت دون وقوع خسائر في الأرواح والممتلكات العامة

مصطفى : بسبب هذه الحكومات المتعاقبة والتي تدعي التدين خرج الناس من الدين أفواجًا أفواجا!

صمت الشباب وقرروا تفويض أمرهم لله فهو وحده القادر على نصرتهم في هذه الظروف الحرجة.

قررت ريحانة هي الأخرى الاستسلام للنوم بعد أن انقطع عنها حديث الشباب وقد بقى صوت مصطفى يرن في أذنها : بسبب هذه الحكومات خرج الناس من الدين أفواجًا أفواجا!

في الصباح استيقظت ريحانة قبل الجميع وقد سمعت صوت مصطفى في الخارج ينادي على تقوى، رفعت الخيمة وهي بكامل حجابها وألقت التحية عليه لتخبره بأن تقوى ما زالت نائمة، فجاءها صوته :

- حسنٌ.. أخبري أمي أن تعد الفطور للشباب وهذا الخبز الحار قد أعدته الخالة (ام صلاح) جزاها الله خيرًا لم تتركنا منذ اليوم الأول وإلى الآن!

أعدت ريحانة الفطور دون أن توقظ أي من النساء وتفاجأ مصطفى لكل هذا الحماس الذي كانت تتمتع به خطيبته وحمد الله الذي جعل علاقته بها تستمر رغم ما كانت تتصف به من توتر.

قالت ريحانة وهي تأخذ الأواني الفارغة من مصطفى :

- هل تريد الذهاب إلى حضرة الإمام الحسين عليه السلام قبل أن تأتي الحشود المتظاهرة إلى هنا!

- نعم.. ولكن من أخبركِ بهذا؟!

- تقوى، قالت لي بأنك صرت تستغل قرب ساحة الاعتصام من ضريح الإمام الحسين لتزور الإمام كل يوم صباحًا.

- أهاا.. نعم صحيح هل تريدين مرافقتي؟

- أتمنى ذلك.

- هيا اسرعي إذن، واسألي البقية إن كن يردن أن يأتين معنا!

- لكنهن إلى الآن نائمات، ساعدهن الله على التعب طوال هذه العشرة أيام! سأوقظ أمي وأخبرها حتى لا تقلق علي إن لم تجدني.

وفي صحن الإمام الحسين عليه السلام قالت ريحانة لخطيبها وهما يجلسان أمام الضريح المقدس :

- الجملة التي أخبرت بها أصحابك ليلة أمس!

- أي جملة؟ وهل كنتِ تتنصتين علينا؟!

ضحكت وهي تقول :

- نعم تعمدت أن يكون فراشي بالقرب من باب الخيمة حيث تجلسون انتم!

- وما كانت تلك الجملة؟

- الأخيرة.

- أعرف إنها الأخيرة.. ذكريني بها!

- سمعتك تقول : بسبب الحكومات المتعاقبة والتي تدعي التدين خرج الناس من دين الله أفواجًا أفواجا!

- أهاا.. تذكرتها.

- ماذا كنت تقصد بها بالضبط؟

- لقد شوهت هذه الحكومات صورة الدين الحقيقي في نظر الناس فصار الكثير يكره دين الله بسبب التصرفات اللامسؤولة من قبل أعضائها كسرقة خيرات البلاد والتناحر فيما بينهم لأجل الكراسي والسلطة وعدم الإلتفات للفقراء من الشعب.. ألم تخبريني في بداية خطوبتنا بأنكِ لا تحبين الحديث عن الدين بسبب هؤلاء الذين ينتمون إليه ويتحدثون بإسمه؟!

- نعم صحيح!

- تركوا الشعب يمارس طقوسه الدينية بحرية وانشغلوا هم بعمليات السلب والنهب، كما أنهم مستعدون أن يتركوا البلد بلا موازنة ولا تنفيذ مشاريع ولا حكومة فعلية إن لم يحصلوا على ما يرضيهم من الحصص البرلمانية..

و عندما تتم الطبخة على ذوق الجميع بعد مرور سنة أو سنتين على الانتخابات يبدأوا بعقد جلساتهم لأجل إقرار وسن القوانين التي تنفعهم وتضمن لهم ولأبنائهم مستقبلًا زاهرًا في بلدان الخارج!

وهذا ما حدث منذ ستة عشر عامًا وإلى الآن!

هذه الحكومات الاسلامية والدينية التي تدعي الانتماء لدين الله ولرسول الله ولعلي بن أبي طالب ولعمر بن الخطاب لم نرَ منهم موقفًا موحدًا يصب في مصلحة البلاد والشعب!

كانت ريحانة تستمع لخطيبها وهي تنظر إلى عينيه مباشرة فلقد ادهشتها تلك الدموع وذلك الصوت الحزين الذي امتلأ عبرة وغصة!

قالت وهي تخرج منديلا من حقيبتها :

- امسح دموعك يا مصطفى فنحن عند سيد الشهداء الذي يأبى لأنصاره الذل والضعف، يجب أن نبقى أقوياء إلى آخر رمق فينا.

رفع مصطفى رأسه نحو قبة ضريح الحسين وهو يقول :

- ليس ذلًا ولا ضعفًا لكن العبرة تخنقني يا ريحانة، أتمنى أن أصرخ بأعلى صوتي لأشكو للحسين(عليه السلام) كل ما فعله بنا أولئك الذين يدعون حبهم وانتمائهم لرسول الله وعلي والحسين!

أريد أن أخبره بأن هؤلاء كانوا السبب الرئيسي في إلحاد مئات الشباب اليوم!

صار الناس كارهين لدينكم يا أبا عبد الله لأنهم - للأسف - قاسوا الدين على أساس أولئك الرجال وما هم برجال! لو كانوا رجالا فعلًا لاحترموا المبادئ التي تكلموا عنها في حملاتهم الانتخابية من الاصلاح والمساواة والعدالة.. أما الآن فتعال يا (حسين) لترى تلك الحكومات كيف صارت تتناحر فيما بينها لأجل الدنيا لا غير!

هل تعلمين يا ريحانة بأن خالي استشهد على يد الطاغية صدام منذ أكثر من ثلاثين عامًا بسبب انتمائه الديني والمذهبي ونشاطه الإصلاحي؟ أما اليوم فأنا أحمد الله الف مرة أن إختار خالي لينال الشهادة فلو كان ما زال حيًا لا أعرف ماذا كان قد حصل له ولأفكاره ومبادئه حاله حال هؤلاء الذين استلموا الحكومة الآن في حين أنهم كانوا - ظاهريًا - معه في ذلك الوقت!

قالت ريحانة محاولة مواساته :

- ليس شرطًا أن يتغير لو كان حيًا إلى الآن، الانسان الذي يكون أساسه الديني قوي لا أظنه سيتغير بسهولة!

لكأت هذه الجملة جراح مصطفى فقال بأسى :

- وهل برأيك أن الأساس الديني القوي يجعل الإنسان ثابتًا على مبادئه الحقة؟

- نعم بالتأكيد.

- لكن أساسكِ أنتِ وصديقي عماد - رحمه الله - كان أساسًا قويًا فلماذا تغيرتما؟ ولماذا ابتعدتما عن الدين إلى الدرجة التي صرتما فيها لا تطيقان سماع هذه الكلمة؟

طأطأت ريحانة رأسها قائلة :

- نحن حالنا حال مئات الشباب اليوم صرنا ضحية لزيف المخادعين فصدمتنا هذه الحكومات الدينية! بل صرنا نقيس ديننا على أساس أولئك المتلبسين بالدين.. لكني الآن نادمة يا مصطفى ولو كان عماد حيًا أيضًا وشهد أيامنا هذه وسمع كلامك هذا فحتمًا إنه سيعلم أن الدين الحقيقي ينأى بنفسه عن كل تلك الجهات المنافقة.

ولأن أساسي قوي - ولله الحمد - فلقد عدتُ بقوة وصرت أبصر الحقيقة كما هي، فعلًا أن ديننا بريء من كل هذه التصرفات والأفعال الدنيئة للمتلبسين به زورًا وبهتانًا.

١٩

الاعتصامات تستمر في كل محافظات الوسط والجنوب! تزداد حدتها في بغداد وكربلاء والنجف وذي قار والبصرة!

أغلق المتظاهرون في البصرة ميناء ام قصر كوسيلة للضغط على الحكومة في تلبية مطالبهم، وفي بغداد كانت هناك محاولات للمتظاهرين لعبور الجسور التي تؤدي إلى المنطقة الخضراء لكن الطلق الناري الحي والغاز المحرم دوليًا لهم بالمرصاد!

فكان الشهداء يسقطون مضرجين بدمائهم واحدًا تلو الآخر، والحكومة ما زالت مصرة بأنها لا تحمل السلاح أمام المتظاهرين!!

في الوقت نفسه كان هناك من يريد أن يحرف المظاهرات عن مسارها الحقيقي.. في إحدى الليالي جلس الشباب يتسامرون كما في كل ليلة، قال زيد :

- المخربون لا يريدون ترك المظاهرات بحالها!

قال عبد الله :

- الغناء والرقص صار ينتشر بكثرة رغم سقوط عشرات الشهداء يوميا! وكل هذا بفعل المخربين الذين يريدوا تشويه المظاهرات وحرفها عن مسارها الصحيح.

قال ماجد :

- لنكن واقعيين فليس كل الظواهر السلبية سببها العناصر المغرضة، فثورتنا تجمع كل فئات المجتمع وبتنوع توجهاتهم وطباعهم والبعض يحتاجون إلى وعي أكثر.. أعتقد أن بعض الشباب إنجرّوا وراء تلك الظاهرة السلبية لأنهم يريدوا تغيير الجو ليس إلا، أو أن فرحتهم بهذه الأجواء الوطنية والتكاتف غير المسبوق يجعلهم يعبرون عن ذلك الفرح بالغناء والرقص!

قال حسنين :

- لكن الغناء والرقص يؤذي عوائل الشهداء.. أم ماذا تقولون؟

ردد الجميع :

- نعم فعلا.. يؤذيهم كثيرًا.

قال مهند :

- خاصة بعد أن استغل المخربون هذه الظاهرة فقاموا بإرسال الفتيات للرقص بشكل مخجل وسط المتظاهرين، وهذا ما حدث معنا قبل أيام في كربلاء بالذات!

قال محمد :

- ما رأيكم أن نقوم غدًا بتوزيع أوراق نكتب عليها نداءنا بترك ظاهرة الغناء والرقص الجماعي مع ذكر الأسباب المقنعة التي ذكرناها الآن.. فالوعي هو الذي يقود مظاهراتنا ويجب أن ننشره بشكل أوسع وبين الجميع.

صاح حيدر بحماس :

- نعم أحسنت.. وسأقوم أنا بطباعة ما تريدون كتابته.

تكلم مصطفى اخيرا :

- أحسنتم يا شباب يجب أن نكون حذرين وأن نحافظ على الصورة الناصعة لثورتنا هذه.

في اليوم التالي نفذ الشباب فكرتهم وكانت الفكرة نفسها قد طبقت في جميع المحافظات ولاقت قبولًا واسعًا من قبل الشباب فتوقفت حفلات الرقص والغناء - إلا حالات نادرة - وصارت مجالس العزاء والشموع ومحافل القرآن تنتشر في ساحات الاعتصام أكثر من أي أمر آخر وخاصة بعد تزايد عدد شهداء العراق إلى أكثر من ٣٠٠ شهيد في غضون اسبوعين فقط!

أما تقوى وريحانة وباقي الناشطات من طالبات الجامعة والإعلاميات فقد كن يستقبلن النساء في الشارع القريب على ساحة الاعتصام (شارع الثقافة) وقد نصبن هناك خيمة خاصة بالمتظاهرات اللواتي يأتين الى ساحة الاعتصام فيقدمن لهن الطعام والشراب وأماكن الاستراحة كما يعقدن محفلًا قرآنيًا في كل ليلة يهدى إلى أرواح شهداء العراق وتُضاء فيه الشموع في أجواء روحانية مباركة.

من أجمل ما يميز ثورة أكتوبر العراقية انها وحدت جميع طوائف العراق وجميع أبناءه بكافة توجهاتهم!

قالت ريحانة لمصطفى وهم يتوجهون إلى ضريح ابي الفضل العباس عليه السلام في إحدى الليالي :

- الوحدة العراقية التي استشعرها في ساحة الاعتصام تجعلني أعجز عن التعبير عن مشاعري! فبعد أن حاولت الطائفية تمزيق هذه الوحدة من خلال بث التفرقة بين الشعب نراهم اليوم يدًا واحدة للوقوف بوجه الظلم!

- نعم فعلا ريحانتي.. لقد رأيت الغني والفقير، والمتدين والعلماني، وحافظ القرآن والموسيقي، والمعلم والطالب، والأب والابن.. فئات وتوجهات وأعمار مختلفة.. الكل اجتمع لتلبية نداء العراق دون أن يهتم أحدهم لاختلاف الآخرين! فهل تعلمين ماذا تسمى هذه الظاهرة؟

- لا.. ماذا تسمى؟

- إنها (التعايش السلمي) والتي دعى إليها رسول الله صلى عليه وآله وكذلك جميع الأئمة عليهم السلام بأن نحترم الآخرين مهما كانت أفكارهم وكما يقول إمامنا علي عليه السلام (الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق).

- أظنه قصد بأن الذي لا يشابهك في الدين فهو يشابهك في الخلق فكلاكما - إنسان - ويجب أن يُحترم لأجل إنسانيته!

- نعم أحسنتِ عزيزتي.. لكن من يطبق هذا الكلام؟!

- اليوم تم تطبيقه في بلادنا، أنا رأيت ذلك بأم عيني ففي نفس ساحة الاعتصام هناك من يقرأ القرآن وهناك من يسمع الغناء وهناك من يمسك كتاب الدعاء ليلهج بالتضرع إلى الله وهناك من يجلس هو وصديقه يلعب الدومينو!!

- هل رأيتِ أن أحدهم إستاء من الآخر؟!

- لا أبدًا!

- بل بالعكس رأيت إحترام البعض للبعض الآخر ففي وقت المغرب يطفأ الشباب هواتفهم ليبقى فقط صوت الأذان يصدح وسط ساعة الاعتصام!

- هل تصدقين يا ريحانة بأنني أعرف شباب هنا لم يكونوا من المصلين لكنهم عندما رأوا الدين على حقيقته وكيف أن هناك شباب ملتزمين بدينهم وغيورين على بلادهم ويتصفون بأخلاق عالية جدا مع الجميع فإن أولئك الشباب الذين لم يجربوا الصلاة يوما قد قاموا فتوضأوا ووقفوا ليصلوا بل وصاروا ملتزمين بأداء الصلاة في وقتها مع باقي الشباب!

دمعت عينا ريحانة وهي تقول :

- وأنا منهم يا مصطفى! صدقني لقد وجدت هنا دينًا يُطبق تطبيقًا رائعًا، هل تصدق بأن النساء اللواتي يأتين كل يوم مع بناتهن لتقديم المساعدة للشباب كن يدخلن للخيمة وقت الصلاة وبعد ادائهن للصلاة يبدأن بالدعاء والبكاء والتضرع إلى الله بحفظ الشباب ونصرهم على الظالمين، كن ملتزمات هن وبناتهن بكامل الحجاب الشرعي وكن يشجعن أولادهن على تنظيف الساحة بشكل مستمر!

رأيت كيف يأتين بالأموال لأجل التبرع بها وكذلك بالطعام هن وازواجهن بشكل مستمر ويومي! بينما كنت أنا أنظر للعوائل المتدينة وخاصة في هذه المدن المقدسة على أنها عوائل متكبرة ومنعزلة عن المجتمع ولا رحمة لها ولا إنسانية!!

٢٠

بعد الاعتداءات المتكررة لقوات مكافحة الشغب قرر مصطفى إعادة نساءه للمنزل فهو لا يدري في أي لحظة سيتم تصفيتهم!! خاصة بعد أن انتشرت حوادث قتل الناشطين وخطفهم وتغييبهم عن أجواء الثورة!

في تلك الليلة التي أصرَّ فيها مصطفى على عودة أهله وخطيبته ووالدتها إلى منازلهن وبينما كان يجلس هو واصدقائه كما في كل مرة يتسامرون ليلًا وإذا بقوات مكافحة الشغب وبزيهم المعروف ذلك حيث لا تظهر من وجوههم إلا العيون! هجموا على خيام المعتصمين وصاروا يضربونهم بالهراوات والعصي الكهربائية وهم يصرخون : أين المندسين!!

حاول الشباب أن يكونوا أكثر صمودًا لكن تلك القوات استطاعت أن تفرقهم وإبعادهم عن الخيام باستخدامها الغازات السامة، شعر مصطفى بأن أعصابه لا تتحمل مزيدًا من هذا الغاز فلقد استنشق منه الكثير خلال هذا الأسبوع!

سقط أرضًا بعد أن تشنجت جميع أعصابه فسحبه أصدقائه بعيدًا عن الخيام وصاروا يغسلون وجهه بشراب البيبسي الذي كان يقلل من تأثير ذلك الغاز! ومن هناك صاروا يراقبون ما تفعله تلك القوات فإذا بها تضرم النار في الخيام وتحرق كل شيء في تلك الساحة حتى المصاحف الشريفة!!

في الصباح وبعد أن عرف أهالي كربلاء بما جرى للمعتصمين من تعذيب وحرق الخيام هبوا إلى تنظيف المكان والعودة بقوة إلى مساندة المعتصمين فلقد انقلب السحر على الساحر!

حاولوا إنهاء الاعتصام بأي طريقة فإذا به يزيد عن السابق وإذا بالمشاعر تلتهب أكثر فأكثر والكل يصدح بحب الوطن والموت للخونة!

في المنزل اتصلت تقوى بريحانة لتخبرها بكل ما جرى لمصطفى واصدقائه وبأن مصطفى الآن في المنزل بعد أن تأذت أعصابه كثيرًا من الغاز السام وبعد أن أشبعوه ضربًا وصعقًا بالعصي الكهربائية .

أسرعت ريحانة ووالدتها إلى منزل مصطفى وهناك رأت خطيبها بحالة يرثى لها، وما أن رآها حتى خاطبها ودموعه تسبق كلماته :

- لقد أحرقوا المصاحف الشريفة وتعدوا كل حدودهم!

صارت ريحانة تضمد له جراحه وهي تبكي وتقول :

- هل هناك أمل في نجاح الثورة بعد كل هذا؟

قال لها وهو يتألم من حرارة المادة المعقمة :

- نعم بإذن الله.. ما دام التجاوز وصل لكتاب الله الكريم - وهم يعلمون جيدًا بأن خيمنا تحتوي على المصاحف لأننا نعمل يوميًا محفل قرآني على أرواح الشهداء - فصدقيني لن يدوم حكمهم!

ومهما بلغت قوتهم في العراق فهناك رب أقوى منهم.. ثقي بذلك.

- أتساءل كثيرًا يا مصطفى.. هل الإمام المهدي عليه السلام سيقوم بثورة مشابهة لهذه عند ظهوره؟ وهل هو يدعو للثورة الآن؟!

- جزاكِ الله خيرًا يا ريحانة على ذكركِ لصاحب الأمر روحي فداه .. هو حتمًا يدعو لنا بالنصر لأننا نقوم بمحاربة - الظلم - وهو نفس الهدف الذي سيظهر لأجله روحي فداه، ألم تخبرنا الروايات الشريفة بأنه سيظهر ليملأ الأرض قسطًا وعدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا؟ صحيح أننا لن نستطِع بثورتنا هذه أن نملأ أرضنا عدلاً لكننا نحارب الظلم والجور كما سيفعل بالضبط.

- أتمنى أن أعرف يا مصطفى كيف ستكون الحياة عند مقدمه الشريف؟

قال بلهفة :

- ستكون ربيعًا.. يا ريحانة!

سألته بدهشة :

- ربيعًا ؟!

- نعم.

- وكيف ذلك.. أتمنى أن أعرف ماذا تقصد بالربيع؟!

- إسمعي ما تصفه لنا الروايات عن الحياة التي سنعيشها في زمانه - روحي فداه - وستعرفين ماذا اقصد بذلك..

عن أبي سعيد الخدري (وهو من الثقاة عند أخواننا من أهل السنة والجماعة) حيث ينقل لنا هذه الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : " يخرج رجل من أهل بيتي،

ويعمل بسنتي، وينزل الله له البركة من السماء وتخرج الأرض بركتها، وتملأ الأرض عدلًا كما ملئت ظلمًا وجورا" .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله في نفس المعنى :" يتنعم أمتي في زمن المهدي نعمة لم يتنعموا قبلها قط، يرسل السماء عليهم مدرارا، ولا تدع الأرض شيئًا من نباتها إلا أخرجته".

وعن الإمام علي عليه السلام :" ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، ولأخرجت الأرض نباتها، ولذهبت الشحناء من قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم، حتى تمشي المرأة بين العراق والشام لا تضع قدميها إلا على نبات! ".

وعن الإمام علي عليه السلام أيضًا :" يبعث الله رجلًا في آخر الزمان.. يدين له عرض البلاد وطولها.. وتخرج الأرض نبتها، وتنزل السماء بركتها، وتظهر له الكنوز.. ".

سألت ريحانة بدهشة :

- كنوز؟!

أجابها مصطفى :

- نعم.. قد تكون كنوز من العلم والاكتشافات المعدنية التي عن طريقها تظهر لنا الأرض كنوزها الحقيقية! ولا يأتي هذا حتمًا إلا عن طريق العلم الحقيقي ..

عن أبان عن الإمام الصادق عليه السلام قال :

(العلم سبعة وعشرون حرفًا، فجميع ما جاءت به الرسل حرفان فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين، فإذا قام قائمنا أخرج الخمسة والعشرين حرفًا فبثها في الناس وضم إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفًا).

عادت ريحانة للتساؤل :

- أظن أن الحرف بمعنى القِسم أو الفرع، أي أن العلم الحقيقي ٢٧ قِسمًا أو فرعًا..؟

أيدها مصطفى بالقول :

- نعم.. اعتقد ذلك.

قالت ريحانة بفضول :

- لدي سؤال أخير حول رواية العراق والشام! وسؤالي عن تلك الرواية يتكون من شقين : الأول لماذا اختار الإمام علي عليه السلام العراق والشام مثالًا عن الدولة المهدوية رغم أنها عالمية وستشمل جميع بقاع الأرض؟!

اما الشق الثاني من السؤال : فما الذي يريده الإمام من عبارة : أن المرأة لا تضع قدميها إلا على نبات؟

أجابها خطيبها بالقول :

- أما جواب الشق الأول من السؤال فأعتقد بأن إختيار الإمام علي عليه السلام بلاد (العراق والشام) بالذات للتحدث عن الأمان الذي سيحل فيهما وذلك بسبب ما ستشمله هذه البلدان العربية من أوضاع متوترة ما قبل ظهور الإمام عليه السلام وها نحن نرى الآن أوضاعًا متدهورة في كلا المنطقتين وأكثر من أي مكان في هذا العالم فعساه يكون زمن ما قبل الظهور فعلًا! كما يجب أن تعلمي أن لفظة الشام لا تُطلق في ذلك الوقت على سوريا فقط بل تشمل (سوريا، لبنان، الأردن وفلسطين).

أما الشق الثاني من سؤالكِ فأعتقد بأن الإمام علي عليه السلام إختار لفظ (النبات) دلالة الخصب والخير الكثير الذي يأتي من الزرع والحصاد والأرض الخضراء الواسعة.

قالت ريحانة بسعادة بالغة :

- وبهذا يكون معنى هذه الرواية بأن المرأة ستسير بين العراق والشام دون أن يعترضها أي شيء يدعو للخوف، بل ستكون آمنة ومطمئنة وهي تمشي بين الأزهار والحقول الخضراء!

أخذت ريحانة حسرة طويلة لكن الابتسامة ما زالت مرسومة على محياها.. أردفت بشغف واشتياق :

- فعلًا هو الربيع بعينه! وكما وصفته لي يا مصطفى.. إنه ربيع الكون! ما أجمل أن نعيش زمن الظهور وأن تتصل أيامنا بأيامه.. وما أروعها من أيام!

٢١

قالت ريحانة في إحدى الليالي وهي تتصل بخطيبها :

- هل تعلم يا مصطفى أنني ومنذ اليوم الذي كلمتني فيه عن حياة زمن الظهور وكيف سيغدو الكون ربيعًا صرت استشعر ذلك الربيع في أيامنا هذه!

سألها بتعجب :

- وكيف ذلك!

أجابت بلهفة :

- رغم أننا نعيش في فصل الخريف الآن لكنني أشعر بأن الفصل (ربيع) والهواء نقي والأجواء رائعة! .. كل ذلك لأننا حاربنا الظلم والجور في زماننا وكأننا صرنا نهيأ الطريق لصاحب الأمر روحي فداه!

منذ الصغر يا مصطفى وأنا أتمنى أن أتحول إلى فراشة تحوم حول الأزهار في فصل الربيع، وها أنا اليوم أشعر بأن حلمي ذاك قد تحقق فيكفي في هذه الثورة أن علمتني أمورًا كثيرة عن ثورة صاحب الزمان وعن روعة الحياة حين مقدمه إلينا! صرت استشعر نفسي بأني تلك الفتاة التي وضعت يدها على أزهار الربيع قبل الجميع! بل صرت أستشعر نفسي بأنني تلك الفراشة التي وجدت الربيع قبل أن يأتي!!

قال مصطفى باهتمام :

- سبحان الله .. منذ طفولتنا وأنا أراكِ كالفراشة التي تبحث عن الربيع ويسعدني بأني أراكِ الآن كذلك! لكن يا عزيزتي يجب أن لا تثقي كثيرًا بالأيام القادمة، يجب أن نكون حذرين حتى وإن انتصرت ثورتنا فلا نعلم ماذا يضمر لنا أعداء العراق من مخططات! يجب أن نبقى حذرين.

كانت ريحانة تستمع باهتمام بالغ، اكمل مصطفى وهو يستشعر اهتمامها :

- العراق مسقط رأس الإمام المهدي عليه السلام فهو الإمام الوحيد الذي ولد في العراق وستكون عاصمته في العراق أيضا، وهذا يعني أن حكم العالم كله سيكون من العراق! هل تعلمين ما معنى ذلك؟

- لا!

- معناه أن العراق سيبقى هدف أعداء الحرية والعدل.

- ولكن لماذا؟

- لأنهم يتصورون أنه من السهولة القضاء على ثورة الإمام المهدي عليه السلام قبل أن تبدأ!

- وماذا تقصد من كلامك هذا؟

- أقصد بأنه قد يكون ما يزال أمامنا الكثير لتمهيد وتهيئة الدرب أمام ثورة الإمام روحي فداه.. فهل انتِ مستعدة؟

صاحت بلهفة :

- طبعًا مستعدة! رغم أنني أشعر بأن الربيع قريب جدًا.. أقصد بذلك ربيع مقدمه المبارك.

- بإذن الله تعالى عزيزتي ، وأنا أيضا أشعر بذلك صدقيني.. إنهم يرونه بعيدًا ونراه قريبا.

******

في ساحة التحرير في بغداد كان أغلب الشباب ينامون في المطعم التركي الذي هو عبارة عن بناية كبيرة تطل على المنطقة الخضراء لذلك تركتها الدولة بدون استغلال حفاظًا على أمن المنطقة الخضراء التي يسكن فيها أكبر شخصيات الدولة!

أطلق الشباب اسم (جبل أُحد) على تلك البناية الضخمة بعد أن تمركزوا فيها، وصارت هذه التسمية رمزًا وطنيًا من رموز الثورة وصار الناس عندما يريدون التحدث عن مواقف الشباب في ذلك المطعم يقولون شباب جبل أُحد!

ولشد ما أثار اهتمام الجميع كيف حول الشباب هذه البناية المهجورة إلى متحف فني رائع جدًا بعد أن تحولت جدرانه إلى لوحات فنية تحكي بطولات النصر والشهادة في هذه الثورة الكبرى.

وكان الشباب يصورون من أعلى هذه البناية ويوثقون المواقف البطولية للشباب العراقي وهم يقفون بوجه قوات مكافحة الشغب لا يملكون غير العلم العراقي فتأتيهم قنابل الغاز المسيل للدموع في رؤوسهم لتفلق الرأس إلى نصفين!!

كانوا أغلب الشهداء فتيان تنحصر أعمارهم بين السادسة عشر والعشرون عامًا!

أما الأماكن التي كانت تحدث فيها هذه الأحداث البشعة فأغلبها عند جسور (التحرير والسنك والجمهورية والشهداء) في قلب العاصمة بغداد.

لم يكن لدى الشباب ما ينقلون به الشهداء والجرحى إلا تلك المركبات الصغيرة التي تسمى "التكتك" حتى أن هذه المركبة صارت هي الأخرى رمزًا ثوريًا في ذلك الوقت وأطلقت تسمية (تكتك) على أول صحيفة يصدرها شباب الثورة تثمينًا منهم لجهود الأبطال أصحاب هذه المركبات الصغيرة في نقل جرحى الثورة بشكل مجاني وسريع إلى المستشفيات القريبة من ساحات التظاهر.

٢٢

في الفترة التي قضتها ريحانة في المنزل ومع استمرار الإضراب الطلابي عن الدوام كانت بحاجة أن تقرأ الكثير عن حقيقة رسول الله (محمد) وعن حقيقة ما جاء به من دين وأحكام..

اتصلت بخطيبها واخبرته عن حاجتها هذه فسألها أي كتاب تحبين أن أجلبه معي في زيارتي القادمة؟

أجابته بلهفة :

- أتمنى أن أقرأ كتاب للسيد التيجاني بهذا الخصوص ولكني لا أذكر اسمه!

- تقصدين كتاب (وأكثرهم للحق كارهون)؟

- نعم.. نعم هو بالضبط! ولكن كيف عرفته مباشرة؟ فأنا لا أذكر بأني تحدثت عنه سابقا إلا في محادثاتي مع علاء؟!

تلعثم مصطفى قليلًا في الجواب ثم قال :

- عرفته لأنه أكثر كتاب لدى السيد التيجاني يتحدث فيه عن حياة رسول الله" صلى الله عليه وآله" بالتفصيل وهو اختيار موفق، أهنئكِ عليه! فلقد ذكر فيه حياة رسول الله " صلى الله عليه وآله" وأتذكر أنه قد قسمها إلى ثلاث مراحل تحت عنوان (هل كان رسول الله محاربًا)؟

قالت باهتمام بالغ :

- وهذا ما أريد معرفته تمامًا.. سأنتظر مجيئك بلهفة كبيرة هذه المرة.

قطب مصطفى حاجبية وتغيرت نبرة صوته قائلًا باستياء :

- وهل كان انتظاركِ لي في المرات السابقة دون أي لهفة؟

ضحكت ريحانة من كل قلبها وهي تقول :

- لا يا نور عيني صدقني لم اقصد ذلك! لكني متشوقة لمعرفة المزيد عن الرسول " صلى الله عليه وآله" وخاصة ما أثيرت عنه من شبهات ما زلنا نعيش سلبياتها وتأثيراتها إلى يومنا هذا!

جاء مصطفى حاملا معه الكتاب وبعد أن قضى وقتًا لا بأس به مع خطيبته اتجه إلى خيام المعتصمين تاركاً ريحانة مع كتابه المفضل!

****

قلبت ريحانة صفحات ذلك الكتاب المهم إلى أن وصلت إلى بحث (هل كان رسول الله محاربًا؟) وقرأت فيه :

المرحلة الأولى من حياة رسول الله (محمد)

لم يسجل التاريخ لمحمد الطفل والشاب والكهل أي فترة من حياته أنه حمل خلالها سلاحا أو سيفا أو تلقى تدريبات قتالية ، أو شارك في غارة من الغارات التي كانت القبائل العربية تشنها على بعضها البعض قبل ظهور الاسلام .

بل كان محمد وديعًا مسالما يحب الناس ويقضي حوائجهم وخصوصًا المساكين والمستضعفين من النساء والرجال والولدان ، صادقًا في كلامه أمينًا في ودائعه حتى لقبه قومه بالصادق الأمين قبل أن يكون نبيًا رسولا .

وعندما أرسله الله سبحانه إلى الناس كافة وأمره بدعوة العباد لعبادة الخالق وحده ، كانت دعوته سلمية لم يحمل في وجوههم سلاحًا ولا أسس عصابة لمحاربة الناس وارهابهم أو لتهديدهم واغتيالهم .

إنما دعا قومه إلى :

١- ترك عبادة الأصنام وعبادة الحي الذي لا ينام .

٢- تحرير العبيد من الظلم والاستبداد .

٣ - احترام الأنثى كاحترام الذكر فلا تدفن في التراب حية .

٤- ترك الفواحش كالزنا والاغتصاب وشرب الخمر واكل الربا والمال الحرام والقمار .

٥- احترام النفس البشرية عندما جعل من يقتل النفس الواحدة كأنما قتل الناس جميعا .

وكانت دعوته الى ذلك كله بالحكمة والموعظة الحسنة وكان يجادلهم بالتي هي أحسن ويحييهم بتحية السلام ....

المرحلة الثانية من حياة رسول الله (محمد)

عارضه قومه بالسب والشتيمة ورموه بكل التهم وقالوا مجنون وساحر وكذاب ، وضربوه وسجنوه في شعاب مكة ثلاث سنوات ومع كل ذلك توجه الى ربه قائلا :

" اللهم إهدي قومي فإنهم لا يعلمون "

لم يحارب ولم يقاوم إلا بالصمود والثبات والصبر واضطر أخيرا الى مغادرة مسقط رأسه ، وهاجر الى بلد غريب عندما بايعه الأنصار هناك على حمايته والدفاع عنه لمنعه من القتل والاغتيال عندما أرادوا به ذلك .

أصبح رسول الله الحاكم الفعلي في المدينة المنورة التي كانت موطن القبائل العربية من اوس وخزرج وهم من اصول يمنية وكذلك موطن لقبائل يهودية ، وأول شيء فعله رسول الله أن عقد هدنة مع يهود المدينة تكفل حريتهم بالعيش مع المسلمين ولهم أن يقيموا شعائرهم على ديانتهم اليهودية مع ضمان المساواة والعدالة الاجتماعية ..

ثم أكب رسول الله على كتابة أول دستور يضمن حقوق الانسان ، ولنا أن نقرأ ما كتبه المستشرق الروماني (جيور جيو) يقول :

حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بندا ، كلها من رأي رسول الله ، خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى ولا سيما اليهود وعبدة الأوثان وقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده .

وضع هذا الدستور في السنة الأولى من الهجرة الموافق لعام ٦٢٣ م .

فكيف نصدق بعد ذلك من يقول بأن محمدًا بعث بالسيف وأنه انتصر بالسيف وأن دينه فرض على الناس بالسيف في حين أن الذي بعثه وأرسله يقول في سورة الأنبياء - آية ١٠٧ : " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين "؟!

فهل الرحمة في القتل وإراقة الدماء؟!

ويخاطبه عز وجل بأنك يا محمد ليس لك أن تفرض صيطرتك على الناس لأنك ما بعثت إلا مذكرا وناصحا وذلك في قوله تعالى في سورة الغاشية الآيتين ٢١ - ٢٢ :" فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر "

ويقول في سورة يونس - آية ٩٩ : " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين "

وهل أوضح من هذه الآية دليل على عدم جواز إكراه الناس على الدخول في الإسلام .

المرحلة الثالثة من حياة رسول الله (محمد)

قد يأتي من يسأل الآن : إن كان الله قد أرسل رسوله رحمة للعباد ومنعه من اكراههم على الدخول إلى دين الاسلام فلماذا خاض رسول الله حروبا ومعارك كمعركة بدر وأحد وحنين والخندق والأحزاب وخيبر ؟؟؟؟

وما حقيقة الفتوحات الاسلامية التي قام بها الخلفاء بعد وفاة رسول الله محمد ؟!

أليس في هذا إكراه الناس على الدخول في الاسلام ؟!

ويكون الجواب كالتالي :

ان الجهاد أو القتال في سبيل الله ورد في القرآن الكريم بمعنى الدفاع وليس معنى الهجوم ، الدفاع عن النفس وهو حق مشروع في كل دساتير العالم ، وفي كل الأعراف الدولية وهو أمر طبيعي لا ريب فيه .

ومن المعلوم أن اللغة العربية تفرق بين القتال والقتل ، فالقتل هو الهجوم والاعتداء ، وهو جريمة عند الله .

وقد ركز القرآن في كل آيات الجهاد على معنى القتال دون القتل وبين بوضوح بأن القتال لا يكون إلا دفاعا عن النفس وذلك قوله تعالى :

" وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين " البقرة - ١٩٠

فالله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين الذين يقتلون الناس ظلما وعدوانا .

وقد كان رسول الله أحرص الناس على تطبيق أوامر الله سبحانه ، فلم يسجل التأريخ أنه أغار على قبيلة أو هاجم قوما أو اعتدى على من ناصبه العداوة والبغضاء ، ولم يحارب إلا مضطرا للدفاع عن نفسه وعن أصحابه المؤمنين ، وكان يوصيهم في أشد المعارك مع الأعداء بأن لا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا هاربا ولا يقتلوا أسيرا ولا إمرأة ولا طفلا ، ولا يمثلوا بجثة ، ولا يحرقوا شجرا ولا يهدموا بيتا .

وبعد هذا الطرح الموجز يتبين لنا بأنه (صلى الله عليه وآله) لم يكن محاربا بل كان مسالما الى أبعد الحدود فهذا قول الله سبحانه وتعالى وهو يخاطب رسوله في القرآن الكريم يؤكد لنا هذا الطرح حيث يقول عز وجل في سورة الأنفال - آية ٦١

" وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم "

يبقى لنا أن نعرف أن كل المعارك التي شارك فيها رسول الله بنفسه أو بجيشه كانت دفاعية وليست هجومية - حتى فتح خيبر إذ لم يتجه الى حصن خيبر إلا بعد أن ضاق ذرعا بتصرفات اليهود ومكائدهم الخبيثة التي كانوا يريدون بها القضاء عليه شخصيا - وأوضح دليل على أنه عليه وعلى آله الصلاة والسلام كان مدافعا في حروبه جميعها هو موقع أول حرب قادها (غزوة بدر الكبرى) اذ نلاحظ أن (بدر) تبعد عن مكة ما يقارب ٤٠٠ كيلو متر ، ولا تبعد عن المدينة سوى ٨٠ كيلو متر ، وهذا يدل على أن المشركين كانوا قاصدين المدينة المنورة للقضاء على رسول الله بعد إعلان الحرب عليه .

٢٣

في يوم (١٦ تشرين الثاني) أطلق شباب الثورة في ساحة التحرير في بغداد نداءات للعوائل العراقية بأن يرسلوا إليهم أغطية كثيرة بسبب برودة الجو فلقد حل الشتاء على العراق وساحة التحرير تغص بالمعتصمين من كل أنحاء العراق!

لم تمضِ إلا ليلة واحدة وإذا بساحة التحرير تمتلأ بالأغطية والأفرشة والوسادات بعد أن تبرعت العوائل ومن كل المدن القريبة حتى عادت النداءات مرة أخرى لكن هذه المرة بعبارة : كفاكم فلقد (كفيتم ووفيتم).

انتشرت في هذه الفترة المهمة من تاريخ العراق ثقافات عديدة في ساحات الاعتصام ففي عدة محافظات أقام الشباب معرضًا للكتاب وفي كربلاء كان هناك خيمة (جيل الوعي) لعرض الكتب الثقافية وتشجيع المعتصمين على القراءة وكذلك ركن (إقرأ دقائق)..

لم تكن الفعاليات في باقي المحافظات تختلف عما يحدث في بغداد وكربلاء، فلقد نزل الرسامون والفنانون إلى الشوارع القريبة من ساحات الاعتصام وصاروا يشكلون بفرشاتهم والوانهم أجمل اللوحات المعبرة التي تحكي عن حب الوطن والحاجة إلى الحرية والكرامة.

كما نقلت القنوات الفضائية صورًا رائعة ومن جميع المحافظات الثائرة عن فعاليات ثقافية متنوعة كانت منتشرة في ساحات التظاهر والاعتصام كالمسرحيات وأمسيات الشعر ومعارض الكتب ومباريات كرة القدم!

كل هذا لأجل أن يوصلوا فكرة إلى العالم أجمع بأن ثورتهم سلمية ثقافية واعية، ثورة شعب يريد الحياة الكريمة لا غير!

*****

يوم (٢٨ من تشرين الثاني) كان يومًا يختلف عن باقي أيام ثورة تشرين!

فلقد استيقظ العراقيون على خبر مجزرة الناصرية والنجف!

تناقلت يومها القنوات الفضائية وكذلك مواقع التواصل مقاطع فيديو توضح دخول قوات الأمن إلى ساحات التظاهر في الناصرية وقيامها بالرمي الحي الكثيف على الشباب المتظاهر هناك مما أدى إلى سقوط عشرات الشهداء ومئات الجرحى!

لم يختلف الأمر كثيرًا في النجف الأشرف للأسف الشديد فبعد أن كان هذه المدينة تتمتع بسلميتها منذ أول يوم لاندلاع الثورة إلا أنها وفي هذا اليوم بالتحديد أصبحت الأحداث فيها دامية!!

تأزمت الأوضاع أكثر بعد إعلان المرجعية في خطبة الجمعة في اليوم التالي لهذه المجازر مباشرة عن (إن العراق مقبل على أيام تسودها الفوضى والخراب إن لم يعيد مجلس النواب النظر في خياراته بشأن هذه الحكومة)!

في عصر ذلك اليوم وبعد أن هددت العشائر في الناصرية كل من رئيس الوزراء وقائد عمليات ذي قار نقلت الفضائيات خبرًا مفاده أن الرئيس الحالي للحكومة صرح عن نيته وعزمه في تقديم الاستقالة!

لم يفرح الشعب كثيرا فكيف له أن يفرح بعد انتشار مجالس العزاء في جميع المحافظات الوسطى والجنوبية وقد خيم الحزن على تلك المدن والمناطق وهم يستقبلون جثامين الشهداء لدفنها في أرض النجف الأشرف.

أعلن الشباب الناشط في صفحاتهم ومواقعهم الإلكترونية بأن مطالبهم لا تقتصر على استقالة الحكومة بل الأهم من هذا هو تعديل قانون الانتخابات بما يضمن للشعب الحق في إنتخاب من يستحق ذلك من الكفاءات الوطنية دون تدخل الكتل والقوى السياسية.

٢٤

في يوم (١ / كانون الأول) وافق مجلس النواب على استقالة الحكومة! أي بعد أكثر من ٣٥ يوم على إنطلاق الثورة وبعد إستشهاد أكثر من ٤٣٣ عراقي وإصابة ١٥ ألف جريح!!

وفي يوم الخميس المصادف (٥ / كانون الأول) أقر مجلس النواب قانون جديد لمفوضية الانتخاب يتكون من (سبع قضاة ومستشارَين إثنين) كفوئين يتم اختيارهم بالقرعة لضمان الشفافية وصرح رئيس مجلس النواب بأن جميع الأسماء التي ستدخل القرعة بعيدة كل البعد عن الإنتماءات الحزبية ..

في يوم الجمعة (٦ / كانون الأول) انطلقت بإتجاه العاصمة بغداد مسيرة حاشدة ومن جميع محافظات العراق وكانت تجمع وفودًا من ممثلي التظاهرات وشيوخ ووجهاء العشائر وممثلي العتبات المقدسة لإعلان المساندة والنصرة لشباب ساحة التحرير وكانت هذه الكلمات الشجية رسالتهم لشباب الثورة هناك ورسالتهم أيضًا للحكومة الظالمة التي صارت تلفظ آخر أنفاسها :

من قلبِ وطنٍ ، لن يكبلَ بالسلاسلْ ..

من عاصمةِ عراقٍ ، يعيشُ قيامةَ الحقِ على الباطلْ ..

من بغدادَ التي ما كسرتها ، قرونٌ من الزلازلْ .

أيتها الجماهيرُ المحتشدةْ .. السلامُ على أصواتكمُ الهادرةْ .. وسواعدكمُ القادرةْ .. ورحمةُ اللهِ وبركاته .

بعدَ خمسةَ عشرَ شهراً من الآن ، تمرُ مائةُ سنةٍ على تأسيسِ الدولةِ الحديثةْ ، في أقدمِ حضاراتِ العالمْ ، العراقْ .

دولةٌ عمِّدت بالدمْ .. وقامتْ على تضحياتِ الأجدادِ الشهداءِ ، في ثورةِ العشرينْ .

دولةٌ .. فرضتها إرادةُ الأمةِ العراقيةِ على المحتلِ البريطانيْ ، ليكونَ العراقيونَ أولَ شعبٍ عربيٍ ينتزعُ حكومتهُ الوطنيةَ من الغزاةْ .

ولكنَّ مئةَ سنةٍ مرتْ ، والعراقُ يكابدُ المحنةَ بعد المحنةْ ، ويودعُ الحلمَ بالتقدمَ بعدَ الحلمْ .

مئةُ سنةْ ، وأرضُنا التي حَباها اللهُ بالكنوزِ ، تئِنُ لفقرِ أبنائِها .. الذينَ يمشونَ على ظهرِها ، والخيرُ كلهُ تحتَ أقدامِهِمْ .

مئةُ سنةْ ، ونخلُ العراقِ يشيبُ جيلاً بعدَ جيلْ .. شاهداً على طموحِ الشبابْ ، الذي شابَ بينَ الصراعاتِ والأطماع ، والرقصِ على حبالِ العرقِ والقوميةِ و الطائفةِ .

مئةُ سنةْ ، منْ التدخلِ الخارجيْ ، والهيمنةِ الدوليةْ ، والانقلاباتِ والمؤامراتْ ، وقضمِ الحدودِ والثرواتْ ، وفسادِ الحاكمِ وقهرِ المحكومْ ، وكأنَّ الشعبَ سليبٌ غريبْ ، لاقرارِ لهُ في أرضهْ ، ولاسيادةَ لهُ على وطنه .

حتى غارَ الجرحُ وانثلم الترابْ .. بدخولِ أعتى تنظيمٍ إرهابيْ ، لايعرفُ غيرَ سلبِ الأرواحِ وانتهاكِ الأعراضْ ، ليهددَ ماتبقى من أملٍ لهذا البلدِ الوحيدِ في الميدانْ ، كوحدةِ الحسينْ ، لاناصرَ لهُ ولامعينَ إلا اللهْ .

ولكنهُ العراقْ .. ومهما تلبدت الغيومُ .. وازدحمت الخطوبْ ، يعودُ عيناً بعدَ عينْ ، وشمساً بين الخافقين ..

عراقٌ .. للهِ فيه وعد .. كبرياؤُهْ لنْ يُذلْ .. ومصنعُ رجالِهِ لنْ يُقفلْ .. وسيبقى شبابُهُ أسوداً في كلِ الميادينْ .. أعزاءَ أو شهداءْ .

سننتصرُ هذهِ المرةْ ، كما انتصَرنا في كلِ المراتْ .. مؤمنينَ بما قالهُ ضميرُ العراقْ ، في خطبةِ النصرُ على داعشَ قبلَ سنتينْ ، ومنْ صحنِ الحسينْ ((إن المعركةَ ضدَّ الفسادِ ـ التي تأخرتْ طويلاً ـ لا تقلُّ ضراوةً عن معركةِ الارهابِ إنْ لمْ تكنْ أشدَ وأقسى، والعراقيونَ الشرفاءُ الذينَ استبسلوا في معركةِ الارهابِ قادرونَ ـ بعون اللهِ ـ على خوضِ غمارِ معركةِ الفسادِ والانتصارِ فيها أيضاً إنْ أحسنوا ادارتها بشكلٍ مهنيٍ وحازمْ))

وها نحنُ بعد سنتينْ ، وها هوَ صوتُنا .. يعيدُ صدى سنواتٍ عجافْ ، من المطالباتِ بالإصلاح ، على مسمعٍ من الخضراءِ القاحلةْ .. وأحزابِ المحاصصةِ الباطلةْ ..

فبإسمِ شهدائِنا الذينَ لم ولنْ ننساهم .. مادامَ للعراقِ علمٌ يرفرفْ .

بإسمِ أنينِ الأمهاتِ الفاقدات .. والزوجاتِ الصابرات ..

بإسمِ أيتامِ اليومْ .. وقادةِ الغد ..

بإسمِ الشابِّ الذي يبحثُ عن فرصةِ حياةٍ كريمةْ ..

بإسمِ الابِ والأمِ الخائفينَ على مستقبلِ أولادهمْ ..

بإسمِ الشهاداتِ العليا ، والطاقاتِ المعطلة ..

بإسمِ كل موظفٍ نزيهْ ، و موجُ المالِ الحرامِ يتلاطمُ من حولهْ ..

بإسمِ أسودنا الرابضينَ على أكتافِ السواترْ ..

بإسمِ طلبتنا الساهرينَ لأجلِ التفوقُ والنجاحْ ..

بإسمِ عشائِرنا وغيرَتها وأصالتِها

نناديكمْ يا ساسةَ العراقْ ، يا أصحابَ الامتيازاتِ الخاصةْ ، والبروجِ العاجيةْ ، إستيقظوا فقد لاحَ الفجر ، وافهموا كيفَ يسيرُ القَدَر ، هذهِ الجماهيرُ ليستْ فورةَ ساعةٍ لتقتنعوها بفُتاتٍ من التعييناتْ ، ولا سحابةَ صيفٍ تتجاوزونَها بحفنةٍ من التعديلاتْ .

إنهُ السيلُ ، فلا تعترضوهْ ، ولا تراهنوا على المندسِ الذي يشوهُ تظاهراتِنا السلمية ، ولا المخربِ الذي يشوشُ مطالبَنا الأساسية ، ولا الجاهلِ الذي يعادي قواتِنا الأمنية ..

لاتنتظروا مللَ الجماهير ، فالمطالبُ أصبحت عقيدةْ ، والعقيدةُ لاتقتلعُ ولاتموتْ .

قالَ العراقُ كلمتهْ ، ولنْ يعودَ مابعدَ الاحتجاجاتِ كما كانَ قبلها في كلِ الأحوالْ ، ومهما كانَ الظرفُ والمآلْ .

واهمونْ ، إنْ ظننتمْ المندسَ سيمزقُ صفوفَنا!

واهمونْ ، إن حسبتمْ دخانَ الحرائقِ سيُعمي أبصارَنا

لقدْ بُحَّتْ الأصوات ، وأُغلِقتْ الأبواب في وجوهِكمْ قبلَ سنوات ، ولكنكمْ في سكرةِ السلطةْ ، لاترونَ الحقيقةْ ،

فلمْ يعد أمامَنا سوى تطويرِ أساليبِنا الاحتجاجيةْ ، والاستمرارِ حتى الحصولِ على حقوقنا كاملةً غيرَ منقوصة ، وبقوة السلمية .

لاتصنعوا لمشهدِ اليومِ مبرراتٍ من التسويفِ والمماطلةْ ..

لأننا سنكونُ دوماً ، الوجهَ الآخرَ للمشهدْ ، ولن نسمحَ بمصادرةِ الوطنْ .

ها نحنُ اليومْ ، بقوةِ الجماهيرِ العراقيةْ ، وإرادتِها الحرةِ الأبيةْ نطالبُ بمحاسبةِ الفاسدينَ والقتلةْ ، نطالبُ بحفظِ مكانةِ العراقِ التي تليقُ بهِ حراً متنعماً بثرواتهِ وسيادتهِ ومؤسساتهِ الدستورية .

ومنْ أولِ أولوياتِ مطالبِنا ، الإسراعُ بتشريعِ قانونينِ أساسيينْ ، لاتحَقُقَ للإصلاحِ إلا بهما :

الأولْ : قانونُ إنتخاباتٍ ينصفُ الكفاءاتِ المحرومةَ من خدمةِ بلدها ، قانونٌ يجعلُ المسؤولَ مديناً للجمهورِ الذي اختارهُ فيعملُ لخِدمتِهْ .

قانون لايصعد فيه أحدٌ على أكتافِ الآخر ، من خلالِ التمثيلِ النسبي .

أنه الخزيُ بعينِهْ ، أن تسيلَ دماءُ شعبِكُمْ بينما تفكرونَ بتقاسُمِ القانونِ معهُ نصفاً بنصفْ!

لانريدُ قانوناً يعيدُ نفسَ الوجوهِ مرةً بعدَ أخرى ، ويتيحُ لمن شغلوا مناصبَ سابقةً (تشريعيةً أو تنفيذيةً أو قضائيةً أو أمنيةْ) أن يعودوا من جديد.

لانريدُ قانوناً يجعلُ للمسؤولِ قدماً في المنصبْ ، وقدماً في قائمةِ المرشحينْ ، فلا هو في إدارةِ منصبِهْ ، ولا هوَ في إدارةِ حملتِهْ .

لانريدُ قانوناً يسمحُ بترشحِ مزدوجي الجنسيةْ ، فإنَّ أحقَ الناسِ أنْ يكونَ ربانَ السفينةِ ، منْ لايفكرُ بتركِها إذا هاجَ بها البحر .

الثاني : قانون المفوضية الذي تم إقراره مساء يوم أمس .

نريدها مفوضيةً لامكانَ للأحزابِ ومحاصصاتِها في إدارةِ شؤونِها

مفوضيةٌ لايباعُ مجلسُ مفوضيها في مزادِ الصفقات ، ولاتتاجرُ بأصواتِ الشعبْ ،

مفوضيةٌ تؤمنُ أنَّ حقَ الإختيارِ هو أقدسُ ما وهبهُ اللهُ للإنسانْ .

ياكبارَ الساسةِ والمسؤولينْ ، إن سنةَ اللهِ فينا ، أنَّ القلبَ مادامَ ينبضُ ، فالدماءُ تدور وتُجدَّد، وقلبُ العراقِ لازالَ نابضاً بالطاقاتْ ، ولا بدَّ أنْ تتجددَ الدماءُ ، وإلا ماتَ كلُ شيئ .

٢٥

في جمعة المسيرة الموحدة وفي نفس ذلك اليوم وما أن حلَّ الظلام على سماء بغداد حتى صارت السيارات المظللة تحوم حول ساحة السنك والخلاني والوثبة والتحرير ولم يكن يُسمع عندها غير صوت رمي الإطلاقات النارية بشكل كثيف على الشباب المعتصمين ليستيقظ العراق على فجيعة أخرى بعد فجيعته بشباب الناصرية والنجف!!

صرَّح وزير الدفاع سابقًا وقبل إقالة الحكومة بأن هناك (طرف ثالث) هو الذي يقتل الطرفين (المتظاهرين وقوات الأمن) لكنه لم يصرح من هو الطرف الثالث!

كان مصطفى في ذلك اليوم موجودًا في بغداد إذ إنه لم يعد مع المسيرة وبقى مع بعض الشباب في ساحة التحرير ليرى بعينه تلك الفجيعة والمجزرة المروعة التي راح ضحيتها عشرات الشهداء..

كان ينقل الجثث من ساحة السنك إلى خيام الأطباء والمسعفين المرابطين في ساحات الاعتصام وهو يبكي ويردد بألم : بالروح.. بالدم.. نفديك يا عراق.

رأى بأم عينه سيارات مظللة كثيرة تحوم حول تلك الساحات وترمي بشكل عشوائي على المعتصمين! كان بقربه شاب يحمل راية سوداء كتب عليها (لبيك يا حسين) وآخر بقربه يحمل راية خضراء كبيرة ويقف بوجه تلك العناصر المجهولة يرفرف بها أمامهم وكأنه يتحدى الموت! سقط الشاب الذي يحمل الراية السوداء فصار الجميع ينادي لبيك يا حسين!

ركض مصطفى باتجاهه ليحمله فإذا به يتفاجأ بأن الذي يحمل الراية الخضراء ينحني على ذلك الشاب المصاب ويحمله ويركض به دون أن يرمي تلك الراية الكبيرة من يده!

سقط مصطفى على ركبتيه وصار يصرخ ويردد : لبيك يا حسين! اتجه نحوه بعض الشباب وسحبوه إلى مكان آمن، لكن مصطفى كان في حال يُرثى لها..

كان ينادي بأعلى صوته وكأنه يريد أن يوصله إلى مدينته كربلاء حيث مرقد الحسين بن علي :

هؤلاء هم أنصارك الحقيقيون يا حسين، يحملون الراية بيد وينتشلون الجرحى المظلومين باليد الأخرى دون أن يتخلوا عن رايتكم الخفاقة..

هؤلاء هم أنصارك ومحبيك يا حسين.. الذين يقفون بوجه الظلم كما وقفتم أنتم بكل قوة وصلابة ، وليس أولئك الجبناء الأوغاد الذين يدّعون الإنتماء إليكم وهم منغمسون من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم بالظلم والدماء والقتل!!

****

نهضت ريحانة في تلك الليلة مرعوبة إثر كابوس مخيف، لقد رأت أن مصطفى عالق في طريق ضيق وموحش ومعه طفل يصرخ ويستنجد لكنها لا تراهما وتسمع فقط أنين مصطفى وصراخ الطفل!!

وعندما اتجهت صوبهما اعترضها كلب مخيف حاول أن يهجم عليها حتى لا تصل لمكان مصطفى لكنها كانت ترمي عليه الحجر تلو الآخر إلى أن ولى هاربًا فوصلت بصعوبة إلى ذلك المكان الموحش والضيق ، رأته أخيرًا وهو يحضن ذلك الطفل وقد فتر صوت صراخه بينما كانت الدموع قد غسلت وجه مصطفى!!

عندما استيقظت كانت الساعة قد ناهزت الثانية ليلًا، تذكرت انها نامت منذ التاسعة مساءا بعد أن إتصل بها مصطفى ليخبرها بأنه سيقضي هذه الليلة في ساحة التحرير ببغداد!

تساءلت مع نفسها : هل يمكن أنه قد حدث شيء هناك؟ هل ممكن أن يكون شباب ساحة التحرير في خطر؟!

سحبت هاتفها واتصلت بخطيبها لكنها تفاجأت بأن جهازه مغلق!! صارت أناملها تنتقل بين مواقع التواصل الاجتماعي وهي ما تزال ممسكة بالهاتف فصدمها تناقل تلك المواقع لخبر مجزرة جديدة حدثت هذه الليلة في بغداد!!

رمت الهاتف أرضًا ودون وعي صارت تلطم على وجهها وتصرخ : - يا إلهي.. مصطفى.. مصطفى!!

دخلت مروة الغرفة وقد أرعبها صوت صراخ ابنتها وهي تردد :

- إسم الله عليكِ يا حبيبتي.. ماذا دهاكِ يا روحي؟!

حضنت ريحانة أمها وهي تبكي وتنحب وتردد بأسى :

- مصطفى يا ماما.. إنه في بغداد!

- ولكن إهدأي يا حبيبتي.. سيكون بخير صدقيني.

- لقد حصلت مجزرة هناك يا ماما.. . قتلوا العشرات من الشباب المعتصمين، لقد رأيت مصطفى في منامي قبل قليل.. كان يستنجد ويبكي!!

بكت مروة هي الأخرى وساعدت ابنتها على النهوض، أخرجتها من الغرفة واتجهت بها صوب المطبخ..

اجلستها على الكرسي القريب من طاولة الطعام، ثم فتحت صنبور الماء وصارت تغسل وجه ابنتها بالماء البارد وهي تردد :

- سيحفظه الله من أجلكِ.. لا تخافي بُنيتي، ألم تقولي دائمًا بأنه هدية الله لكِ؟ أنتِ ما زلتِ بحاجته ولن يخذلكِ صدقيني.. سيكون قوي لأجلكِ أنتِ.. اطمأني!

- لكن يا ماما مصطفى يحب الشهادة، أكثر من مرة أخبرني بذلك! هو يتمنى الشهادة في سبيل الوطن، ماذا لو..

ولم تدع الأم ابنتها تكمل هذا الحديث الحزين، وضعت يدها على فم ريحانة وهي تضمها إلى صدرها بكل حنان :

- لا تتشائمي.. حبيبتي ،تفائلوا بالخير تجدوه، هيا قومي وتوضأي لتصلي صلاة الليل ولندعو معًا لمصطفى وباقي الشباب أن يفرج الله ما هم به الآن بحق فاطمة الزهراء عليها السلام ونحن نعيش ذكرى رحيلها في هذه الليالي الأليمة ..

توجهت ريحانة إلى سجادة صلاتها بعد أن أحكمت وضوءها، صلت الشفع والوتر من صلاة الليل ورفعت يديها للقنوت ودموعهما تسبق كلماتها :

إلهي بفاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والسر المستودع فيها عدد ما أحاط به علمك وأحصاه كتابك فرج عنا يا الله.

٢٦

في صباح اليوم التالي اتصلت ريحانة بتقوى بعد أن رأت أن هاتف مصطفى ما زال مغلقًا فما كان جواب تقوى إلا أن قالت :

- نحن أيضًا قلقين عليه كثيرًا ولا نعرف رقم أحد من أصدقائه! ما علينا إلا أن ننتظر ونفوض أمرنا وأمره إلى الله!

انتشر خبر غياب أكثر من عشرة شباب من ناشطي كربلاء كانوا قد ذهبوا في نفس تلك الجمعة إلى ساحة التحرير مع المسيرة الموحدة ثم لم يعودوا بعد ذلك إلى أهاليهم!

ضجت أهالي كربلاء بالدعاء لهم وتكثيف النشر الالكتروني للإعلان عن غيابهم والبحث عنهم وبعد أربعة أيام تقريبًا تم الإفراج عنهم وكانت ريحانة تتمنى أن لو كان مصطفى معهم لكنهم عادوا ولم يكن لخطيبها أي أثر بينهم!

ساءت حالة صفا كثيرًا وهي تبكي على ولدها ليل نهار ولا تهدأ لها دمعة حتى جفت دموع عينيها وشعرت بأن قلبها أصبح فارغًا إلا من ذكر مصطفى!

كانت كل من صفا وتقوى وريحانة تحاول أن تبدو أمامها طبيعية ليزدن من قوتها وعزيمتها وصبرها لكن الحقيقة أنهنّ كنَّ أيضًا يشعرن بأن قواهنَّ صارت تضعف يومًا بعد يوم دون وجود أي أثر لمصطفى!

كن يرافقن عمه في البحث المتواصل دون جدوى..

كانت ريحانة تذهب كل يوم إلى مرقد سيد الشهداء وتمسك بالشباك الطاهر وتبكي وتتوسل بالله أن يكتب لخطيبها السلامة والعودة، عندما كانت تمسك بذلك الشباك وتقف تحت قبة الحسين عليه السلام مباشرة تتذكر كلام مصطفى وهو يقول لها : الدعاء تحت قبة الحسين مستجاب.

******

مضى اسبوع كامل على فقدان أي أثر لمصطفى وبالتحديد في يوم الجمعة ١٦ ربيع الآخر الموافق (١٣- كانون الأول) ذهبت ريحانة إلى زيارة الإمام الحسين عليه السلام ولتدعو لخطيبها بالخلاص والعودة ولتستمع إلى خطبة المرجعية من منبر الجمعة، وكانت هذه أول مرة تجلس مع المصلين وهي تستمع بلهفة :

أيها العراقيون الكرام..

إن أمامكم اليوم معركة مصيرية أخرى، وهي (معركة الإصلاح) والعمل على إنهاء حقبة طويلة من الفساد والفشل في إدارة البلد، وقد سبق أن أكدت المرجعية الدينية في خطبة النصر قبل عامين (إن هذه المعركة ـ التي تأخرت طويلاً ـ لا تقلّ ضراوة عن معركة الارهاب إن لم تكن أشد وأقسى، والعراقيون الشرفاء الذين استبسلوا في معركة الارهاب قادرون ـ بعون الله تعالى ـ على خوض غمار هذه المعركة والانتصار فيها أيضاً إن أحسنوا إدارتها) .

****

بعد هذه الخطبة مباشرة عادت ريحانة إلى الوقوف تحت قبة سيد الشهداء عليه السلام ماسكةً بالشباك الطاهر وهي تتوسل إلى الله بهِ عليه السلام بأن يفرج عن خطيبها وعن كل العراق بعد أن أكدت المرجعية بأن العراق اليوم يخوض معركة الإصلاح ضد الفساد ووصفتها بأنها أشد وأقسى من معركتنا ضد الإرهاب!! كانت تردد وتبكي : إلهي بالحسين!

مضى أسبوع آخر وهي ما زالت تتردد على الضريح المقدس دون أي كلل أو ملل!

وفعلاً وكما كانت تشعر دائمًا بأن الله لن يخيب ظنها وسوف يستجيب دعائها ودعاء تلك الأم المسكينة صفا فلقد عاد مصطفى من غيبته التي دامت لأسبوعين كاملين بعد أن أطلق المجهولون سراحه وكان قد تعرض إلى مختلف أنواع التعذيب والترويع على أياديهم لأجل ترك النشاط الثوري!

رنَّ هاتفها النقال.. فتحته لتسمع صوت تقوى وهي تبشرها بعودة مصطفى!

لم تعرف ماذا تفعل للوهلة الأولى؟ هل تبكي أم تقفز فرحًا أم تركض لأمها لتبشرها أم تسجد لتشكر الله من أعماق قلبها على سلامة خطيبها وعودته إليهم حيًا يُرزق؟!

سجدت لله سجدة طويلة سالت فيها دموعها على الأرض وهي تردد : الشكر لله.. الشكر لله.

ثم اتجهت لغرفة والدتها وهي تناديها بفرحٍ غامر : ماما.. لقد عاد مصطفى.. عاد.. عاد!

احتضنت الأم ابنتها وصارت تبكي هي الأخرى من الفرح وتشكر الله على هذا الخبر السعيد، ثم أسرعتا معًا إلى منزل مصطفى لرأيته..

وهناك صدمت ريحانة وهي ترى خطيبها بذلك الوجه الشاحب والجسم النحيل والعينين الغائرتين!

لم تتمالك نفسها! جلست بقربه وهي تبكي دون أن تعرف ماذا تقول أو تفعل؟!

أمسك مصطفى بيدها وهو يهون عليها ما ترى من أمره قائلًا :

- لا تخافي ريحانتي.. ما زلتُ بخير!

شعرت صفا بأن ولدها يريد أن يختلي بخطيبته ليبث لها ألم الفراق، أشارت إلى تقوى ومروة بالقيام وترك الغرفة لمصطفى وريحانة التي كانت شبه منهارة بعد أن صدمها منظر خطيبها وقد خطف الزمن لون وجهه وابتسامته الجميلة..

حاول أن يكون طبيعياً لكنه لم يقدر! صار يحدثها بما جرى معه كل هذه الفترة وكيف شاهد حادثة السنك المروعة ومن ثم معاناته على يد خاطفيه، كان يتكلم ودموعه تجري على خديه وهو يردد : روحي فداء للوطن.

صارت هي الأخرى تحدثه بما جرى في غيابه وما أصاب العراق من فتن رغم هذه الفترة القصيرة! وكيف أن المرجعية وصفت الثورة هذه بمعركة الإصلاح.. كما حدثته عن حادثة الوثبة المروعة وكيف قام الجهلة بقتل شاب من سكنة تلك المنطقة ثم قاموا بالتمثيل بذلك الشاب وسحله في الشارع وتعليقه على عمود كهرباء وسط حشود من الناس!!

كان يستمع والدم يغلي في عروقه، قال بعد أن توقفت ريحانة عن الكلام :

- حتى وإن كان فعلًا قد رفع السلاح ضد المتظاهرين فهل يرضى الدين والعقل والمنطق أن يفعلوا به هكذا؟!

قالت ريحانة وهي تحاول تهدأته :

- لقد كانوا حفنة من الجهلة لكنهم في النهاية شوهوا صورة المظاهرات السلمية وأحدثوا فتنة كبيرة وشرخ واضح بين أبناء الشعب!

- الفتنة.. نعم هذا هو المقصود! لذلك يا ريحانة تأكدي من أن هذه الحادثة لم تحدث إعتباطًا أو صدفة بل هي من فعل فاعل! وهذا الفاعل قد خطط لها وجرَّ الأحداث إلى ساحة الوثبة ليحدث ما يحدث وتتشوه صورة الشباب السلميين وأكثر ظني الآن هو أن من قام بحادثة السنك وقتل عشرات المتظاهرين هناك هو نفسه من أشعل الفتنة في ساحة الوثبة!

عادت دموعه تجري على خديه وهو يردد : أيجري كل هذا على أرضك يا عراق؟!

قالت له ريحانة محاولة زرع الأمل والقوة في قلبه من جديد :

- لا تبكي أرجوك، لقد مزقت نياط قلبي!

حينها صار يردد ذلك البيت الشعري الذي أحبه كثيرًا عندما قرأه للوهلة الأولى وهو الآن يشعر بأن كل ذرة في كيانه تردد تلك الكلمات :

لا تلمْ إن عيل صبري

أو ترى دمعي يُراق..

قد يهون الكون عندي

إنَّما.. هذا العراق!

٢٧

في يوم ٢٤ من شهر كانون الأول أقر مجلس النواب العراقي قانون الانتخابات الجديد الذي يضمن حق الترشيح الفردي بنسبة ١٠٠٪ وبدوائر متعددة وهو ما كان يدعو إليه المتظاهرين منذ أول يوم لقيام الثورة..

وهكذا دخل العراق مرحلة جديدة بفضل الله تعالى وبفضل إصرار الجماهير المرابطة في ساحات الاعتصام والتي شهدت في الأيام الأخيرة إضراب شباب ساحة التحرير في بغداد وباقي المحافظات عن الطعام إلا بعد إقرار قانون الانتخابات، وبفضل دماء ٦٠٠ شهيد و أكثر من ١٦ الف جريح.

وبعد تنفيذ أهم مطلب شعبي لثورة تشرين وشعور الشباب بالانتصار المعنوي حينها صار مصطفى يفكر بإنهاء فترة الخطوبة والتهيأ للزواج وبكل بساطة ودون أي تكلف -

إكرامًا لدماء الشهداء - كما صار يفكر بطريقة يستطيع من خلالها أن يكشف حقيقة علاء أمام ريحانة!

كان متردد كثيرًا في مسألة إخبارها بالحقيقة لكنه في نفس الوقت كان مجبرًا على كشف الحقيقة كاملة قبل الزواج حتى لا تكن تلك النقطة حجر عثرة تقف في وجه سعادته!

فتح البريد الالكتروني بإسم علاء وكان قد تركه منذ وفاة والده فوجد رسالة واحدة من ريحانة كتبت له فيها :

أخي في الله علاء، أود أن أخبرك بأن ديني رجع لي ناصعًا صافيًا بفضل الله وبفضل جهودك وجهود خطيبي مصطفى ولقد عادت المياه إلى مجاريها بشأن علاقتي بخطيبي وصرت اسأله عن كل ما يشغل بالي بخصوص الدين لذلك سوف لن أضايقك مرة أخرى بأسألتي الكثيرة وأشكرك كثيرًا على سعة صدرك وعلى كل المعلومات والأدلة والحقائق التي زودتني بها في الفترة السابقة.

كتب لها :

- الشكر لله عزيزتي وأتمنى لو أستطيع أن أراكِ في أقرب فرصة لأني أريد أن أحدثكِ بموضوع هام جدا.

وصلت الرسالة لريحانة وتفاجأت للمحتوى! فما الذي يريده منها علاء بعد كل هذه الأشهر التي مضت على آخر مرة تكلما فيها؟!

كتبت له وكان ما زال بريده نشطًا وكأنه ينتظر منها ردًا عاجلًا!

- ولكن ما الذي تريده مني بالضبط.. ألا يمكن أن تتكلم هنا؟

فكتب لها :

- لا.. يجب أن أراكِ وجهًا لوجه.

كتبت :

- حسنٌ.. سأدعو خطيبي للحضور أيضا فأنا أريده أن يتعرف عليك، لقد حدثته كثيرًا عنك وأنا متأكدة من أنه سيفرح عند معرفته بقدومك للجامعة!

كتب :

- ولكن هل يجب أن يكون موجودا؟ ألا يمكن أن نجلس لمفردنا!

كتبت :

- طبعا لا.

كتب :

- حسنٌ.. كما تشائين.

سأحمل كراسًا لون غلافه أزرق وعليه صورة وردة حمراء، هذا حتى تعرفينني!

كتبت :

لماذا لا أعطيك رقم خطيبي لتتصل به ساعة قدومك؟

كتب :

- لا بأس.. أعطني إياه!

****

اتصلت ريحانة بمصطفى مباشرة لتخبره بما دار بينها وبين علاء، وما كان من مصطفى إلا أن إستقبل كلامها برحابة صدر محاولاً تغيير الموضوع قدر الإمكان!

- اسمعي ريحانتي.. هل تذكرين بأنني اشتريت لكِ كتابًا في أول خطوبتنا عندما ذهبنا معًا إلى المعرض؟!

- اممم.. نعم تذكرت!

- وأين هو الآن؟

- لا أعلم حقًا، اعتقد بأني أضعته!

صمتت قليلًا ثم قالت :

- لا.. إنتظر! إنك لن تعطني إياه أصلا!!!

ضحك مصطفى وهو يقول :

- جيد إنكِ تذكرتِهِ.. هل تريديه؟!

- نعم.. نعم أليس ذلك الكتاب هديتك الأولى لي؟

- بالضبط.. سأجلبه معي اليوم مساءًا عندما آتي لزيارتكم.

****

بعد زيارة مصطفى لها وبعد أن صار كتاب (في قلبي أنثى عبرية) بين يدي ريحانة، اندمجت كثيرًا مع صفحاته وذكرتها معاناة بطلة الرواية ندى عند غياب خطيبها أحمد بمعاناتها هي عند غياب مصطفى!

أجمل ما كان في الرواية انها حقيقية! وأن أبطالها ما زالوا أحياءًا يعيشون معنا على وجه الأرض وقد التقت بهم الكاتبة (خولة حمدي) شخصيًا وهم من سردوا لها مجريات حياتهم.

أخذت ريحانة ورقة وقلم وصارت تكتب أسماء الكتب التي أشارت إليها الرواية والتي شعرت أنه من المهم قراءتها جيدًا وخاصة انها تجمع أحب شيئين إلى قلبها (الدين والعلم).. الكتاب الأول رواية (جولتي وحيدًا عبر هذا القرن) لروجيه غارودي الفيلسوف والكاتب الفرنسي حيث قصّ فيها سيرته الذاتية ابتداءًا من الحرب العالمية الأولى، وتأرجحه بين الشيوعية والكاثوليكية، مرورًا بصراعاته السياسية والفكرية في منتصف القرن، وصولاً إلى إسلامه في أوائل الثمانينات، يقول غارودي في هذه الرواية أن المعاني التي بحث عنها طوال حياته قد وجدها في الإسلام!

الكتاب الثاني (التوراة، القرآن والعلم) للدكتور موريس بوكاي وهو جراح فرنسي اعتنق الإسلام واهتم بدراسة الكتب المقدسة، وقد وضع في كتابه هذا خلاصة أبحاثه بخصوص (العهد القديم والعهد الجديد والقرآن) وعلاقتها بالعلم.. وقد توصل إلى نتائج مدهشة.

أجمل المقاطع التي توقفت ريحانة عندها طويلا هو الحوار الذي دار بين ندى وميشال الذي يلومها على اعتناقها للإسلام بالقول :

- ما الذي وجدِته عند المسلمين ولم تجديه عند أهلكِ اليهود؟ الا ترين ما هم عليه من التخلف والتأخر عن بقية الأمم؟ لو كانوا على دين الحق لكان الله وفقهم وسخر لهم الإمكانيات المادية.. لكن دينهم لم يساعدهم إلا على التقهقر والانغلاق!

يستمر ميشال بتعداد كل سلبيات المسلمين وإداراتهم التي تسودها الفوضى والفساد! فتقاطعه ندى بالقول :

- ميشال.. لا تحكم على الإسلام هكذا! لا تنظر إلى ما يفعله المسلمون، بل انظر إلى ما تنص عليه تعاليم الإسلام! أنت تعلم أكثر مني أن الإسلام يقوم على الأخلاق الحميدة.. على النظام والأمانة وإتقان العمل والنظافة. الإسلام بريء من كل هؤلاء : من الكاذب

والمرتشي والمحتال والظالم والمبذر! أنا اخترت الإسلام لأنني وجدت فيه ذاتي، ولم أتساءل عن بقية المسلمين!

تذكرت ريحانة هنا كلام علاء عن المسؤولين الفاسدين المتلبسين بالدين الإسلامي، فهل فساد المسؤول المسلم يعني فساد الإسلام؟ وهل تخليه هو عن دينه يفرض علينا أن نتخلى نحن أيضا عن ديننا ومبادئنا السامية؟ لماذا صرنا نقيس الدين بالرجال؟ بينما الواجب أن نقيس الرجال بالدين.. فنقول هذا رجل متدين قولاً وفعلا وذاك لا يعرف من الدين إلا اسمه!!

المقطع الآخر الذي توقفت عنده ريحانة وذرفت الدموع الحارة وهي تقرأه هو المقطع الذي تتحرك فيه شفتا (جاكوب) بشكل لا إرادي وهو يردد :

يا الله، يا رب السماوات.. أيًّا كنت وكيفما كنت.. دلّني على الخيار الصواب، أرني الطريق الصحيح، ارشدني إلى حيث أجدك!

أريد آيةً واضحة.. أريد إشارة صريحة تخرجني من حيرتي وضياعي...

فتح كتاب الله بصفة عشوائية وقرأ الآيات الأولى من الصفحة :

(أَوْ تَقُولَ لَو أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَو أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحسِنِينَ، بَلَىٰ قَد جَاءَتكَ آيَاتِي فَكَذَّبتَ بِهَا وَاستَكْبَرتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ).

صعق وهو يعيد قراءة الآيات مرة أخرى، ثم لمرات أخرى، ومرة إثر مرة تزايد إحساسه بأنها تخاطبه هو دون غيره....

إنهار على الأرض وقد ذهبت قواه! لا يا الله، لا أريد أن أكون ممن يندمون بعد فوات الأوان، لا أريد أن أتحسر على تضييعي لهذه الفرصة للنجاة! اللهم اني أشهد أن لا إله غيرك، وأن محمدًا عبدك ورسولك..

وترك العنان لدموعه، تغسل ما مضى من ذنوبه.

٢٨

كانت جالسة لوحدها عندما جاء مصطفى وسلم عليها، رحبت به وهي تقول :

- ألم يتصل بك علاء إلى الآن؟

قال لها محاولاً أن يبدي غيرته من علاء :

- ألا تلاحظين إنكِ مهتمة لأمره كثيرًا!

قالت بابتسامة جميلة :

- ليس اهتمامًا بقدر ما هو فضول! أتمنى أن أعرف بماذا يريد أن يتحدث!

ابتسم هو الآخر وهو يقول :

- دعينا منه الآن.. انظري إلى هذا الكراس لقد جذبني لونه الأزرق.. لوني المفضل، وهذه الوردة الحمراء لونك المفضل!

صعقت ريحانة وهي تشاهد الكراس بيد مصطفى، ولكن ألم يخبرها علاء بأنه سيحمل كراسًا أزرق اللون وعليه وردة حمراء؟!

ولكن ما هذه الصدفة، إنها حتى لم تخبر مصطفى بكل التفاصيل التي كتبها علاء في تلك المحادثة!

نظرت إلى مصطفى مطولًا ثم قالت :

- ولكن أصدقني القول.. هل التقيت بعلاء اليوم؟

قال وهو يخفي ابتسامة ماكرة :

- هل عدنا للحديث عن علاء؟ سوف أترككِ وأرحل إن سمعت إسمه على لسانكِ مجددًا.

قالت وقد غاضها اسلوبه :

- ولكن ما بك يا مصطفى..؟ لماذا تعاملني بهذه القسوة؟

لمح الدموع والحيرة في عينيها فضحك وهو يقول :

- من اليوم لا علاء في الوجود.. مصطفى وحده في حياتك!

نظرت إليه بدهشة وهي تقول :

- ولكن علاء لم يكن إلا شخص عابر في حياتي لجأت إليه فقط من أجل أن أوطد علاقتي بك.

- حسنٌ.. والآن وبعد أن توطدت علاقتنا إلى الدرجة التي لا نستطيع أن نتخلى بها عن بعضنا لحظة واحدة فما شأننا بعلاء إذًا؟

- ولكن ألا نعلم ما الذي يريده من رؤيتي؟

قال وهو يجيد دور الممثل :

- أظنه كان يريد مصارحتكِ بشيء، ولما رأى اصراركِ على وجودي معكما فقد تخلى عن فكرة رؤيتك!

بدى الارتباك واضحًا عليها وهي تسأل :

- يصارحني؟!

- نعم!

- وبماذا؟

- بحبه لكِ!

صاحت بدون وعي :

- ماذا؟ حبه لي! ولكن ما الذي تقوله.. وبكل هذا البرود!

أطلق مصطفى ضحكة عالية فهو غير قادر على الاستمرار في التمثيل أكثر من هذا.. قال أخيرًا :

- نعم صدقيني.. أراد مصارحتكِ وها هو الآن ماثل أمامكِ!

أدارت ريحانة عينيها حول المكان بحركة سريعة وهي ترتجف باحثة عن علاء، وهنا شعر مصطفى بالغيرة من علاء رغمًا عنه! قال وقد تغيرت ملامحه :

- هل تبحثين عن حبيب آخر غيري؟

نظرت إليه ريحانة نظرة عتاب وهي تقول :

- كفاك تلاعبًا بأعصابي يا مصطفى.. أنت تعلم جيدًا بأني لن أستبدل حبك بأي حب آخر مهما كان، فلماذا تشكك بمشاعري؟!

- حسنٌ الآن.. ما دام الأمر كذلك فهل تعدينني بأن حبي سيبقى كما هو في قلبك مهما حدث؟!

هزت رأسها ودموعها تسبق كلماتها :

- أقسم لك بذلك.

قال وهو يترقب صدمتها :

- حتى وإن ظهر لكِ بأن علاء هو نفسه أنا!

توقفت عن البكاء لوهلة، نظرت له مطولًا ثم مدت يدها نحو الكراس وهي تردد :

- لم يكن صدفة! ولا حتى ذلك الكتاب؟!

قال بفضول :

- أي كتاب؟

- كتاب السيد التيجاني! وكيف أنك عرفت إسمه مباشرة!

ضحك وهو يقول :

- أوه نعم.. لقد أفلتُّ إسم الكتاب في وقتها دون أن أشعر.. لم انتبه إلا بعد أن سألتِني عن كيفية معرفتي له! وخشيت وقتها أن تبدأي بالشك في أمري!

قالت وما زالت آثار الصدمة بادية عليها :

- لقد شككت! لكني ضحكت على نفسي وقتها وقلت لا يمكن أن يكون علاء هو نفسه مصطفى؟

سألها بمزيد من الاهتمام :

- ولماذا لا يمكن!؟

- لأنه أكثر لطفًا منك!

- هل فعلا ترين هذا؟ لقد بدأت أغار من علاء فعلا!

ضحكت ريحانة وهي ترى إحمرار أوداجه :

- وهل يغار الإنسان من نفسه؟

أجابها خافيًا ضحكته :

- عندما يتعلق الأمر بمن نحب.. نعم نغار من أنفسنا!

قالت وهي تستعد للذهاب :

- أنا لكِ يا يقين.. كيف تسمحين لنفسكِ أن تدخلي مع خطيبي في هكذا لعبةٍ!

قال وهو يمسكها من ذراعها ليعيدها إلى الجلوس :

- جزاها الله خيرًا.. لقد سهلت عليّ الكثير من الأمور!

خفضت رأسها خجلاً وهي تسأله :

- هل فعلتَ كل ذلك من أجلي يا مصطفى ؟

غمز بعينه وهو يقول :

- لم أفعل شيء.. فقط بريد إلكتروني جديد وإسم مستعار!

ضحكت وهي تسأله بفضول :

- ولماذا لم تراسلني من بريدك؟

- لأنكِ لم تعطني فرصة لذلك أصلاً .. هل تذكرين كيف كانت نظرتكِ عني؟!

- نعم للأسف!

أكملت وهي تشعر بالامتنان الكبير له :

- لقد كانت إجاباتك جميعها شافية ووافية وجعلتني أبصر الكثير من الحقائق التي كانت خافية عني طوال هذه المدة .. أشكرك كثيرًا ومن كل قلبي!

ابتسم مصطفى قائلًا :

- الشكر لله تعالى فهو صاحب الفضل الأول والأخير.

رددت بامتنان : الشكر لله.. الشكر لله.

٢٩

أغلق الهاتف وهو يشعر بأنه أسعد إنسان في هذا الكون فأخيرًا سوف يجمعه بريحانة منزلٌ واحد!

رن الهاتف مجددًا.. شاهد اسمها! شعر بشيء من القلق، هل ستؤجل الموعد بعد أن إتفقا بأنه سيكون الأسبوع القادم؟

- أهلا بكِ ريحانتي!

- مصطفى.. نسيت أن أخبرك..

- خير ان شاء الله؟

- أتمنى أن أذهب معك لزيارة المرقد الشريف قبل زواجنا.. ما رأيك؟

- ولماذا لا يكون بعد زواجنا؟ أعدك بأنني سآخذك لزيارته في اليوم التالي لزواجنا مباشرة، فأنا يوم أمس كنت هناك ودعوت الله أن يهيأ لنا من أمرنا رشدا بخصوص الزواج، كما نذرت إن سهل الله أمر زواجي فسيكون المرقد الشريف أول وجهة لنا بعد الزواج بإذن الله تعالى.

****

وكما وعد الخطيب خطيبته فبعد زواجهما كان المقام الشريف أول وجهة لهما..

دخلت ريحانة إلى ذلك المكان المقدس ومباشرة فرشت سجادة صلاتها في إحدى زواياه وسجدت لله سجدة طويلة بكت فيها كثيرًا على تفريطها في أمر نفسها كل تلك السنوات، وشكرت الله الذي سخر لها مصطفى والذي أوضح لها ما إختلط عليها من أمور كثيرة في مسألة دينها وآخرتها.

أدارت عينيها في ذلك المكان الجميل والذي شعرت فيه بأن روحها وأخيرًا قد عادت إليها! كانت تأتي إليه مع والدتها وكانت تستأنس فيه كثيرًا ثم تاهت روحها لفترة من الزمن وها هي تعود إليها من جديد، ذلك الشعور بالأنس والراحة قد عاد إليها كما كان بل وأكثر!

هي تتمنى أن تبقى هنا لفترة طويلة.. تقضي وقتها بين الصلاة والدعاء وقراءة القرآن الكريم.

سمعت صوت زوجها يأتي من خلف اللوح الزجاجي الفاصل بين النساء والرجال..

- ريحانة ؟ هل أنتِ هنا؟!

قالت وهي تمسح دموعها :

- نعم مصطفى.. أنا هنا.

- هل تريدين البقاء أكثر؟

- نعم.. إذا أمكن!

- حسنٌ.. سأذهب لشراء الساندويشات لنتناولها في حديقة المقام.. أنتظركِ هناك.

- نعم.. جيد.

عادت إلى المصحف الشريف، صارت تقرأ بصوتٍ خاشع :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعدِهِ وَأَصلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

بكت كثيرًا وهي تردد :

إلهي كنت غارقة بجهلي فاغفر لي.. إنك أنت الغفور الرحيم.

٣٠

في الحديقة المطلة على النهر الصغير الذي كان يجري بالقرب من المقام الشريف لصاحب العصر والزمان جلست ريحانة مع مصطفى وهي تتأمل جمال الربيع!

قالت وهي تمسك بفراشة كانت تحوم فوق أزهار الحديقة :

- ما أجمل أن يبقى الربيع إلى نهاية العمر!

قال مصطفى وهو يأخذ منها الفراشة ليحررها في الهواء الطلق :

- تحدثنا بهذا الأمر مسبقًا.. اتذكرين؟

- نعم.. وكيف لي أن أنسى؟ قلت لي حينها : عندما يأذن الله للمنتظر الموعود بالظهور.. ستكون أيامنا كلها ربيعا!

- أتذكرين أيضا عندما قلت لكِ بأني أعتبر الأوضاع التي مرَّ بها العراق والتي عشناها لحظة بلحظة هي بإذن الله تعالى ممهدة لظهور المنتظر الموعود الذي بشرت به جميع الأديان السماوية ليملأ الأرض قسطًا وعدلا بعد ما ملأت ظلمًا وجورا؟!

- نعم.. أذكر.. لكني الآن أتمنى أن أعرف كيف يمكن ذلك؟

- إسمعي عزيزتي.. إن الجيل الذي يواكب ظهور الإمام عليه السلام يجب أن يتمتع بصفتين..

سألته باهتمام :

- وما هما؟

أجابها باهتمامٍ أكثر :

- الشجاعة والعقيدة.. واليوم اكتشفنا من خلال هذه الثورة بأن صفة الشجاعة تأصلت في المجتمع من خلال هذا الجيل القوي الذي ولد في زمن لا يعرف الخوف أبدًا وكأن نبوءة محمد مهدي الجواهري قد تحققت حين قال :

سينهض من صميم اليأس جيلٌ.. مريد البـأسِ جبـارٌ عنيد!

ورأينا بأم أعيننا هذا الجيل الذي نهض من بين أكوام اليأس والخنوع ليقول كلمته ويقف بوجه الظلم والفساد بصدرٍ مفتوح ويدٍ خاوية إلا من العلم العراقي!

دمعت عيون ريحانة وهي تتذكر تلك البطولات قائلة :

- أذكر جيدًا أولئك الشباب وهم يواجهون قوات الأمن بكل صلابة وشجاعة وحتى عندما تقوم الجهات المسلحة بتصويب الأسلحة اتجاههم لا يتحرك منهم ساكنًا!!

قال مصطفى مؤيدًا لكلامها :

- نعم يا حبيبتي هؤلاء الشباب مع من سقط من الشهداء والجرحى خطوا للأجيال القادمة قصة رائعة بطلها العزم والشجاعة وحبهم لوطنهم لا غير!

سألت ريحانة :

- وبعد الشجاعة؟

أجابها وهو ينظر للمستقبل القريب :

- بعد الشجاعة علينا أن نعود لزرع العقيدة في قلوب الجيل القادم فلقد زعزعت تلك الحكومات ثقتهم بعقيدتهم السمحاء، وهذه المسؤولية تقع على عاتق المصلحين الذين يعرفوا الدين على أنه دين الحب والتسامح والإصلاح.. لا دين التعقيد والغش والخداع!!

قالت ريحانة وقد حطت فراشة أخرى على يديها :

- هل فعلا إن الإمام المهدي عليه السلام لا يظهر إلا عندما ينتشر الفساد في الأرض؟!

أجابها مبتسماً :

- إن كان الأمر كذلك فمن سينصره إذًا؟ صحيح انه روحي فداه سيظهر لينشر العدل والصلاح بعد أن يعم الجور في الأرض لكن هل ترين معي بأنه في ذلك الوقت يجب أن يكون هناك جيل قوي ومتدين لينصر صاحب زمانه؟!

- نعم بالضبط..! فإن كانت الأرض جميعها فاسدة.. من سينصره إذًا؟

- لذلك قلت لكِ بأننا وخاصة - في العراق - يجب أن نعد جيلًا يتمتع بكلا الصفتين لنصرة إمام الزمان.

- ولماذا في العراق بالذات؟

- لأن العراق (مسقط رأس الإمام ومحل سكناه وعاصمة دولته العالمية الموعودة) حسب ما تؤكد لنا الروايات الموثوقة.

مدت ريحانة يدها وكأنها تريد من تلك الفراشة أن تطير قائلة :

- ما أعظمك يا عراق حتى صرت مسقط رأس المهدي الموعود الذي ينتظره جميع البشر ومختلف اديانهم ، وما أعظمك حين ستكون أرضك مصدر جميع القوانين والتشريعات العادلة التي يجب أن يطبقها البشر يومًا ما.. وأرى ذلك اليوم قريبًا جدًا.

أجابها مصطفى مبتسمًا :

- سنعمل على جعل العراق قاعدة سليمة لانتظار ذلك اليوم بعد أن خط شعبه أنشودة الحياة بدماءه الزكية.

صار يردد ودموعه تسبق كلماته أنشودة (موطني) وعندما وصل إلى أحب مقاطع الأنشودة إلى قلبه تذكرت ريحانة تفاصيل ذلك الحلم الغريب الذي رأته قبل أشهرٍ كثيرة ! أمسكت بيده وصارت تردد معه بعيون تلمع بالدموع :

الشباب لن يكل.. همه أن يستقل أو يــبيد.. أو يــبيد!

نستقي من الردى.. ولن نكون للعِدا كالعبيد.. كالعبيد!

لا نريد.. لا نريد.. ذلنا المؤبدا.. وعيشنا المنكدا..

موطني.. موطني

*** النهايـــة ***